كتاب الشعب

سلسلة تحقق اشتراكية الثقافة

3

1979

نجم الدين غالب الكيب

قصة الكشاف ليبيا في العصر الحديث

المنشأة العامة للنشر والتوزيع والاعلان
طرابلس - الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية

قصة الكشاف ليبيا

في العصر الحديث

كتاب الشعب

نجم الدين غالب الكيب

قصة الكشاف ليبيا
في العصر الحديث

المنشأة العامة للنشر والتوزيع والاعلان
طرابلس - الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية

العدد 3 مارس 1979

الطبعة الأولى
1979
الطبعة الرابعة
1395 و. ر ـ 1986 م

الكمية المطبوعة :	5000 نسخة
رقم الإيداع :	152 - 1986
دار الكتب الوطنية بنغازي	

المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان
طرابلس ـ الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية
ص.ب 959 مصرف 20235

حقوق الطبع والاقتباس والترجمة محفوظة للناشر

كلمة تقديم

(من ليبيا يأتي دائماً شيء جديد) .

كلمة أطلقها فيلسوف اليونان الأشهر ـ أرسطو ـ بعد أن بهره ما قرأ عن هذه البلاد وما عاين .

والحق إنه ما من بلد في العالم القديم ـ ولا تخطىء إذ قلنا الحديث أيضاً ـ كان فيه ما يثير روح الباحث ويشحذ ذهن العالم ويجعله يشد الرحال . . رغم ما يلاقيه من نصب وعناء ـ أكثر من ليبيا سواء في تصورها الشامل القديم أو في حدودها الحالية الرحيبة ، ولذا فقد كانت محط الأنظار ومهبط الرحالة فإن لم يكن فيهم لا ريب يمرون في تجوالهم

من الجهات الأربع، وكانت عجائبها التي لا تحصى مثار دهشة العالم وتطلعه في كل ركن من أركانها على مدى الحقب التي مرت بها في عصورها ما قبل التاريخ حتى عصر النفط والغاز.

فليس عجباً إذن أن يقوم من بين أبنائها ومن غيرهم من يلقي بنفسه في غمار صحراواتها ويتسلق جبالها ويمخر عباب شاطئها الواسع الرحيب، فيغوص في رمال الصحراء بحثاً عن واحة نائية أو بحيرة لا تعرفها الدنيا بعد، ويصعد قمم الرواسي في الجبل الأخضر، وجبل نفوسه والأكاكوس ويندفع إلى وادي الأجال منقباً عن حضارة اندثرت أو يسمع صيحات العفاريت في وادي الجان الرهيب، ويغرز مجدافه في البحر الليبي المتلاطم الأمواج فيذوق طعم المغامرة في ضحاضح سرت الكبرى ويعانق حوريات البحر في خليجها العجيب!

مئات من مظاهر الطبيعة المختلفة المتغيرة من ظواهر الحياة الغريبة، ونماذج لا تعد ولا تحصى من أنواع النبات والحيوان والإنسان.

كل هذا كان مبعث حركة قديمة قدم التاريخ يقذف فيها

المغامرون الجسورون بأنفسهم ليسبروا الغور ويروا ما لم يره غيرهم من الناس وهو كثير.

وقد كان الليبيون أنفسهم أول من شعروا بحاجة بلادهم إلى الكشف وأحسوا بأن في هذه الأرض المترامية الأطراف الواسعة الأرجاء شيئاً يجذبهم إليها ويدعوهم إلى التعرف عليه وفك رموزه وإدراك كنهه.

يحدثنا أبو التاريخ (هيرودوتس)(القرن الخامس ق م) في تاريخه (الكتاب الثاني فقرة 32) عن مغامرة فتية من أبناء ليبيا في أول رحلة للكشف داخل أعماق الصحراء فقال: إن أهل قورينا (شحات) أخبروه أن ملك الأمونيين (أهل سيوه) سأل بعض النسامونيين وهؤلاء شعب ليبي يسكن منطقة خليج سرت عن أخبار الصحراء الليبية فقالوا له:

إن بعض أبناء أقطابهم كانوا من الشباب المغامر الفخور فلما بلغوا أشدهم أعدوا العدة للقيام بجملة مغامرات جسورة كان من بينها ارتياد صحراء ليبيا والذهاب إلى ما وراء أقصى نقطة بلغها الرحالة من قبل. فاختاروا بالقرعة خمسة من بينهم للقيام بهذه المغامرة، وهذه هي القصة التي رواها هؤلاء الشباب:

وعندما تركوا باقي رفاقهم مزودين بقدر وفير من الماء والمؤن، ساروا أولاً عبر المنطقة الآهلة بالسكان، حتى إذا ما تجاوزوها بلغوا إقليم الوحوش الكاسرة ومضوا بعده يضربون في الصحراء متجهين غرباً فاستغرقوا أياماً كثيرة في اجتيازهم لمنطقة رملية واسعة فرأوا عندئذ أشجاراً تنمو في سهل، وحين بلغوها وبدأوا يقطفون ثمارها قابلهم وتولى قيادتهم إلى ما وراء ذلك رجال قصار قامتهم أقصر من المعتاد ولم يكن النسامونيون يعرفون لغة هؤلاء الأدلاء ولا هم يعرفون لغة النسامونيين وقد اقتادهم الأدلاء وسط مستنقعات واسعة ما إن عبروها حتى بلغوا مدينة كان أهلها جميعاً يشبهون الأدلاء في القامة وذوي بشرة سوداء. وكان هناك نهر عظيم يمر بالمدينة حتى الغرب في اتجاه مطلع الشمس، وكان يمكن رؤية التماسيح فيه.

هذا ما يقوله (هيرودوتس) عن أول رحلة للكشف بلغنا خبرها. ولعل ما رآه الفتية النسامونيون كان نهر النيجر، وقد حسبه هيرودوتس نهر النيل الذي كان يروى أنه ينبع من ليبيا ويجري شرقاً ثم يعرج شمالاً عند أسوان في مصر، ويناهز بهذا نهر الدانوب الذي يجري شرقاً ثم ينحدر إلى

الجنوب ليصب في البحر الأسود. ولم يورد (هيرودوتس) شيئاً عما رآه فتية سرت النسامونيون غير ما اخبروه به القورينيون من أن الشباب عادوا من مغامراتهم وأن أهل تلك البلاد التي بلغوها سحرة جميعاً)!!

ويحدثنا (لوكان الساموراتي) في (محاوراته) بخبر القرامنتس ـ وهم أهل فزان قديماً ـ وكيف كانوا يرتادون الصحراء الكبرى ويتوغلون فيها توغلاً شديداً، لم يكن يستطيعه غيرهم من البشر. ذلك أن القرامنتس يظلون في مدنهم وقراهم في فزان إبان القيظ حتى إذا ما نزل المطر ـ وقد كان يفعل يومذاك ـ هدأ لهيب رمال الصحراء، وصار عبورها يسيراً، فيندفعون جنوباً وراء الفيلة والنعام وغيرها من الحيوانات يصطادونها ويتخذون من العاج وبيض النعام أدوات واوعية ويخزنون لحومها طعاماً لهم. فإذا نفد ما أتوا به معهم من طعام ـ لعله كان البلح ـ أسرعوا قافلين إلى ديارهم في الشمال، وكان القرامنتس أدرى الناس بالصحراء، وأعرفهم لمشاكلها الوعرة ودروبها الصعبة الدقيقة.

غير أن الليبيين لم يكونوا أول من ارتاد الصحراء واقتحم

المستكشف الدكتور باولو دلا شيلا

(1817 — 1818)

إن المتتبع للنشاط المتواصل الذي قامت به أوروبا في مجال الكشف والرحالة في شمال أفريقيا وجنوب الصحراء الكبرى يجد للمستكشفين الإيطاليين مساهمات لها القدح المعلى في هذا السبيل، وعندما يجري الحديث عن المساهمات الإيطالية في مجال الكشف الجغرافي في داخل أفريقيا تقفز إلى ذاكرتنا تلك المحاولة الجريئة التي قام بها تاجر إيطالي يدعى (انطوان ملفانتي) لارتياد أعماق الصحراء الكبرى، ووصل منها إلى أرض النيجر، وقد تأكد ثبوت هذه الرحلة من واقع خطاب كان قد بعث به

مجالها وأوغل فيها الإيغال كله على مستوى الأفراد والجماعات، بل إن التاريخ ليسجل لرجل منهم سبقاً لم ينل شرفه إلاه. ذلك هو الفرعون (نخاو بن بساماتيكوس) وهو أحد الحكام الكبار من الأسرة السادسة والعشرين الفرعونية في مصر وكانت أسرة ليبية لها من فرعونها السابق (شيشنق) الأول مثل عظيم.

وإذا ذكر (نخاو) فإن أعمالاً كثيرة تذكر، وأمجاداً كثيرة تتلى، منها هجمته المظفرة الموفقة على مملكة إسرائيل وتدميره الساحق لها وتخريبه لمدنها واستيلاؤه على ملكها ـ وقد ذكر هذا كله في التوراة وأطنب ـ ومنها أنه شق القناة المشهورة بين نهر النيل والبحر الأحمر وكانت قرب الإسماعيلية الآن لتمخر سفنه الضخمة البحر الأحمر فلا يعوقها عائق عن بلوغ البحر الأبيض المتوسط. لكن أهم أثر له في مجال الكشف كان تلك المغامرة التي أعد لها وجهز سفناً فينيقية ـ أو لبنانية ـ كثيرة فأبحرت من البحر الأحمر بغية الدوران حول أفريقيا، وأقبلت من أعمدة هرقل ـ أو مضيق جبل طارق الآن ـ وروى بحارتها من الأعاجيب ما جعل المغامرة برمتها موطناً للفخر حتى أثبت العلماء اليوم

بالأدلة والقرائن صحتها. وكانت أول دورة حول أفريقيا بسفن الفرعون الليبي (نخاو بن بساماتيكوس).

غير أن الزمن لا يبقى على حال. وما إن اتجهت الأنظار من اليونان ومن بعدهم الرومان إلى ليبيا حتى تولى أمر الكشف والارتياد هؤلاء الأغارب مبهورين مشدوهين مما رأوا وسمعوا!!؟

ويروي التاريخ أقاصيص عديدة من مغامرات قام بها (كورنيلوس سالبوس) في السنة 19 ق. م. حين بلغ نهر النيجر جنوباً كما يروي (هنري لوت) في كتابه (البحث عن رسومات جبال تاسيلي) وبهذا انفتح الطريق أمام الرومان للتجارة مع الصحراء، وما يقع جنوبها.

بل هو اكتشف طريقاً أقصر مما سلكه من قبل كان لا يعرفه سوى القرامنتس، وسيطروا على الآبار فيه، ولم يفعل (بالبوس) هذا حباً في الكشف والمعرفة بل كان هدفه القضاء على القرامنتس الذين أقضوا مضاجع الأمبراطورية بهجماتهم وتعاونوا مع (لواته) لتدمير مدنها في الشمال.

وإذا كانت حركة الكشف في ليبيا قد ازدهرت منذ قدم الزمان فإنها لم تتوقف مطلقاً، إلا في فترات اضطرت فيها

إلى ذلك لسبب من الأسباب. وهذا ما نراه في هذا الكتاب الذي بين أيدينا اليوم - بل لأجرؤ على القول إن ليبيا - خاصة في أعماق صحرائها - لا تزال في أمسّ الحاجة إلى التعريف، والاستكشاف ودليلي على هذا ما صدر خلال السنوات القليلة الماضية - بل وحتى هذا العام - من كتب لرحالة زاروها وتعمقوا في داخلها وكتبوا عن مشاهداتهم وانطباعاتهم وإن كان ما كتبوه كثير التجني، وإني لأتمنى من كل قلبي أن أرى بعضاً من شبابنا يضرب في صحرائنا ويكشف ما تحت وفوق حبات رمالها ويرتقي جبالها ليعرف ما تحفظه على قممها من كنوز أسوة بأولئك الفتية من النسامونين الأمجاد.

لقد أردت أن تكون كلمتي هذه كلمة تقديم لكتاب الصديق نجم الدين غالب الكيب لكن الحديث يجر بعضه بعضاً. تماماً كما تسحب حبة الرمل أختها أو يدفع الحجر بآخر فلا يكاد ينتهي.

ولقد سعدت حين أنبأني الصديق نجم الدين انه يعتزم إصدار مجموعة مقالاته التي نشر بعضها ولم ينشر بعضها الآخر في ضميمة واحدة تجمع شتاتها وتوحد بينها. وذلك

لأنني كنت اقرأ بعض هذه الدراسات من قبل، وكنت أتمنى على المؤلف ألا يهمل أمرها، وأرجو أن أرى في إصدارها دافعاً لمزيد من الإهتمام بمثل هذه الدراسات الشيقة النافعة أو حافزاً لعمل هام قد يخلد على مر الزمان.

ولست الآن في مجال النقد والتقويم لمجموعة الدراسات هذه التي بين أيدينا فإن هذا شأن آخر، لكنني أعرف أن المؤلف بذل جهداً كبيراً في أن يكشف حركة الكشف في بلادنا، وكان موفقاً في التمهيد لموضوعه عن أهمية كتب الرحلات في كتابة تاريخنا القومي، والنوايا التي تستتر وراء حركة الكشف والريادة ثم نراه يقدم نماذجَ للكشف العربي وما توالى بعده من حملات الإنجليز والفرنسيين والألمان والطليان وهو يربط ربطاً جيداً بين حركة الكشف والصراع السياسي الاستعماري بين الدول الكبرى في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وهو لم ينس ما قدمه الرحالة والصحافيون الشرفاء لبلادنا إبان العدوان الإيطالي الاستعماري الغاشم. ونوه بدور أهل البلاد في مساعدة المستكشفين والرحالة ولولا هذه المساعدة لما نالوا كل أو بعض النجاح.

وعلى كل حال فإن القارىء سيرى أن الباحث قصر دراسته على فترة معينة من الزمان تقريباً تقع بين القرن السابع عشر والقرن العشرين. وأحسب أن هذا المجال الخصب يحتاج إلى دراسات أوسع، واشمل لمختلف العصور والعهود ولعل هذا ماسيخصنا به الأخ نجم الدين الكيب في مستقبل الأيام.

إن القارىء سيجد في هذا الكتاب جوانب جديدة عليه، وسيعرف الكثير مما كان يجري بين القناصل والرحالة، وسيعي فترة عصيبة من عمر هذا البلد، وهي جديرة بأكثر من دراسة واحدة. واعتقد أن المؤلف ساهم مساهمة طيبة في الحركة الثقافية وأدى خدمة للمكتبة لا تنكر. والله ولي التوفيق.

د. علي فهمي خشيم

(مصراتة 9 - 8 - 1967).

دور العرب التمهيدى فى كشف إفريقيا

لا يجب أن يغيب عن البال ذلك الحب الذي عرف به العرب للسفر، والمغامرة والارتحال، ومن هنا نشأ لديهم ذلك الميل للهجرة التي عرفوا بها سواء ضمن الجزيرة العربية أو خارج حدودها. فقد كانت الجزيرة العربية تضيق بأهلها فتدفعهم إلى الهجرة إلى المناطق المجاورة للبحث عن مجال حيوي لعيشهم، وأقرب تلك الأماكن الساحل الشرقي لإفريقيا، هذا بالإضافة إلى عامل آخر هو أن مناخ الجزيرة العربية يكاد يكون مطابقاً تماماً لتلك المنطقة، من القارة، فكان العرب لا يعانون فرقاً مناخياً يحد من نشاطهم، وهذا يوضح سبب تلك الهجرات

المتعاقبة التي كان يقوم بها أهالي الجزيرة إلى القارة.

غير أن العرب قد وسعوا كثيراً من مناطق انتشارهم من بعد ظهور الإسلام، وذلك عبر فتوحاتهم التي شملت أراضي واسعة من آسيا وأفريقيا، وما كادوا يفتحون مصر، (حتى ضربوا في أغوار الصحراء تدفعهم حمية الدعوة للإسلام، والرغبة في نشر أجنحة التجارة إلى الاتصال بالمناطق الواقعة في جنوب الصحراء)[1] الأفريقية الشاسعة وعندما توطدت الأواصر العربية الإسلامية في تلك المناطق كان من السهل عليهم بعد ذلك أن يمدوا اتصالاتهم إلى داخل القارة الأفريقية، ويتمكنوا بدءاً من عام 1076 م من (بلوغ السنغال، والنيجر من ناحية، كما حاولوا أن يسبروا أسرار أعالي النيل من ناحية أخرى)[2].

وقد تنوعت أغراض السياحة والارتحال عند العرب فلم تكن التجارة أو نشر الدين الإسلامي هما الباعثان عليها إذ نجد أن الارتحال من أجل الحج، أو تلقي العلم أو

(1) (تاريخ العرب) ص ١٥.

(2) نفيس أحمد (جهود المسلمين في الجغرافيا) ص 34.

الارتحال من أجل الارتحال تدخل كبواعث جديدة في شد الرحال إلى آفاق الأرض، وبدا أن المرتحلين العرب قد ترسخ في وعيهم قيمة ما يدونونه من ملاحظات عن البلاد التي يتاح لهم زيارتها، فيكتبون ويحللون ويؤرخون - بالضبط كما يفعل الأوروبي اليوم عندما يشد الرحال إلى البلاد البعيدة لينقل عنها ما يراه وما يسمعه، - وقد ترك العرب في هذا المضمار من الآثار ما يشكل إضافة علمية جديدة لمعارف الإنسان، ومن حسن الحظ أن جهودهم في هذا الحقل لم يخف أمرها على أحد (وما أسداه المسلمون إلى علم الجغرافيا يميز مرحلة بذاتها في تاريخ الفكر الجغرافي والمعرفة الجغرافية، ويشمل آفاقاً واسعة إلى درجة مدهشة، وله آثار بالغة المدى)[1].

عندما كانت الجهود العربية لارتياد مناطق واسعة من الشرق الأقصى قد بلغت أوجها خلال القرن الثالث للهجرة واجتمع لديهم من ذلك (معلومات ضخمة عن مناطق الهند والصين ودولة تانغ وشواطئها وأهلها) فإن ما يقابل هذه الجهود في المغرب، وأفريقيا لم يتأت لها من القدر

(1) د. نقولا زيادة (من رحلات العرب).

والمقدار ما رأيناه في جهود الجغرافيين والرحالة في الآفاق المجهولة لبلاد الشرق (إلا بعد أن استقر العرب كفاتحين في الأندلس حيث بدأوا من هناك يباشرون أراضي واسعة ويتعرفون إلى مناطق كبيرة في أوروبا وأفريقيا) ومن الأندلس هذه انطلقت معظم الرحلات إلى شمال أفريقيا ووسطها، فكانوا هم أسبق شعوب الدنيا للكشف عن أجزاء من تلك الأراضي الشاسعة فيكتب لهم بذلك السبق التاريخي على أوروبا التي ظلت بعيدة كل البعد عن ساحة الكشوفات الجغرافية ، (تصدهم عن محاولة ذلك بغضاء التحامل على المسلمين من جهة، وقصور جهودهم عن اقتحام الميدان في وجه السيطرة الإسلامية من جهة أخرى)[1].

ففي عصر الخليفة العباسي العزيز (375هـ 985م) ظهر مؤلف جغرافي ذو قيمة صارت أساساً لمعرفة العرب بأفريقيا ذلك هو كتاب ألفه أبي الحسن أحمد المهلبي ، عن السودان ، كما توصل (الإدريسي) بعد ذلك (أي في منتصف القرن الثاني عشر الميلادي) لمعلومات عن النيجر ومناطق

(1) نفيس أحمد (جهود المسلمين في الجغرافيا) ص 34.

كبيرة من السودان، في دقة لا ينازع فيها وذلك في ثنايا جغرافية (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) وإن جدة معلومات الإدريسي عن أفريقيا وقيمتها الحقيقية لتثير إعجاب الجغرافيين المحدثين[1].

وقد أنجبت الأندلس مجموعة ضخمة من الرحالة والمكتشفين الذين دفعوا بأنفسهم لاختراق الأراضي الأفريقية والكشف عن أسرارها فهذا أبو عبد الله عبد العزيز البكري (432هـ ـ 1040م) يقدم على تأليف معجمه الجغرافي وكذلك كتاب آخر وضعه في المسالك والممالك ساهم بهما في تدعيم علم الجغرافية بمسح شمل أراضي كبيرة في شمال أفريقيا والأندلس وما يليها من أراضٍ في أوروبا الغربية!

وقد ظلت معلومات العرب تزداد وتتسع عن أفريقيا حتى ظن البعض أن ليس هناك مزيد لمستزيد فقبل ستمائة عام استطاع الرحالة العربي ابن بطوطة (1369 — 1304م) أن يتجول في أجزاء عديدة من أفريقيا الوسطى فكتب عن (تمبكتو) وعن (مالي) وبلغ (نهر النيجر) وما يسمى ببلاد

(1) نفس المصدر السابق ص 35.

السودان الغربي وقادته رحلاته إلى أعماقه ووصل إلى (تكدا) وهي أكبر مدن الطوارق، وبيانه الإملائي لرحلاته التي أسماها (تحفة الأنظار في غرائب الأمصار) يحتوي على معلومات ضخمة وذات قيمة لا تقدر بثمن عن المناطق التي زارها في تجواله عبر أراضي شمال أفريقيا مثل الجزائر، وليبيا، وتونس، ومصر، فضلاً عن سياحاته التي قام بها في بلاد الشرق الأوسط.

وعلى الرغم من تلك الجهود الجبارة التي بذلها ابن بطوطة في سياحاته التي استغرقت حوالي ثلاثين عاماً، طاف فيها بأجزاء كبيرة من أقطار الأرض وما جاء في إثرها من إنجازات كشفية مثيرة (خاصة ما يتصل منها بأفريقيا) إلا أن آثاره في هذا السبيل لم تلق ما يستحقه من الاهتمام من قبل أوروبا على الرغم مما تنطوي عليه من أهمية لا تنكر.

ومن الرحلات المهمة التي احتفظ لنا التاريخ بها هي الرحلة التي قام بها محمد العبدي البلنسي في شمال أفريقيا في عام 688 ـ 1289، وشملت جل البلاد الواقعة فيه بدءاً من مراكش، وحتى مصر وقد قيد فيها الكثير من الملاحظات عما رآه في تجواله من مظاهر حياتية عامة، وهو

كثير التعليق، وكثير الغمز واللمز على أن ما دونه منها لا يخلو من أهمية!

ولم تكن الرحلات السابقة التي قام بها كل من المهلبي والبكري، والإدريسي، وابن بطوطة ومن قبله العبدري إلا إشارات تمهيدية ذات قيمة كبرى في الولوج داخل القارة، ولعل من أهم الرحلات التي أعقبتها ونالت شهرة واسعة في أوروبا هي الرحلة التي قام بها محمد الوزان (المغربي الأصل والمعروف عند الأوروبيين بليون أفريكانس) داخل أفريقيا أو ما كان يسمى بالسودان الغربي، فقد قادته رحلته إلى فزان بعد أن ألقى به القدر هو ووالديه هناك فراراً من اضطهاد المسيحيين الإسبان ومن هناك بدأ تجواله عبر الصحراء وارتاد مناطق مختلفة من أراضي السودان الغربي، وعمل فيها بشجاعة وجرأة فائقتين، ودوّن من المعلومات عنها الشيء الكثير ضمنها في كتاب أتمّ تأليفه في عام 1926م حيث قرأته أوروبا باندهاش وإعجاب شديدين بعد ذلك بقرن آخر من الزمان.

وكان لظهور هذا الكتاب (بما انطوى عليه من معلومات

مثيرة عن قلب القارة الأفريقية) يعتبر حتى ذلك الوقت من القرن السادس عشر عملاً مثيراً ورائداً من بعض وجوهه، ومن هنا فقد وجد هذا الكتاب كل الترحيب من الدوائر العلمية في أوروبا التي سارعت بنشره، وتداوله، وقد نال هذا الكتاب من الثناء حداً قال معه أحد الباحثين الأوروبيين:

ـ ليس فيمن نعرف حتى اليوم من أحق بالشهادة من هذا العالم (يقصد محمد الوزان) صاحب البصر النافذ، والعقل الرصين لأنه شهد ما كتب عنه بعينيه حين قادته حياته القلقة هناك، في أعماق أفريقيا.

ومن المؤكد أن الجهود التي بذلها العرب في جغرافية شمال أفريقيا ووسطها كان لها أثر طاغ على أفئدة الأوروبيين ، وبذرت في نفوسهم حب المغامرة والسفر والإرتحال ولا بد وأنهم كذلك، قد استفادوا من تجاربهم التي أودعوها في العديد من مؤلفاتهم ، نقول ذلك بالرغم من تلك الآراء المضادة التي لا تعترف بأثر ما قدموه من تجارب عميقة، في حقل الكشوفات على الفكر الجغرافي الأوروبي.

وإننا لا نتصور كيف يتأتى أن يظل ذلك الزخم في كمه الهائل من التجارب، والخبرات والمعلومات متداولاً في مكتبات أوروبا، أو بين أيدي قرائها من الخواص والعاديين دون أن يكون له الأثر المباشر على الفكر الجغرافي الأوروبي، وإذا ما انتفت آثار العرب في هذا الميدان فإنه بات علينا أن نسمع أيضاً أن هذا النكران ربما يمتد ويشمل أفضالهم في بقية الميادين العلمية الأخرى وهذا مما لا يصدقه عقل!؟.

ماذا وراء حركة الكشف الأوروبي من نوايا ؟

اتجهت بعض الدول البحرية في أوروبا منذ العصر الوسيط إلى خوض غمار الكشف في مناطق واسعة من العالم، وقد عظمت، واشتد ساعدها حتى سميت العصور الوسطى بعصور كشف العالم والإنسان.

ولقد كانت الكشوفات التي قامت بها أوروبا البحرية في كل من آسيا وأفريقيا، وأمريكا قد فتحت مجالاً للاتصال المباشر الذي جاء بالمنافع الكثيرة لأوروبا وكانت هذه المنافع من الإغراء بحيث جعلها محل تسابق وصراع عنيف بين الدول الأوروبية التي لم تضيّع الوقت فراحت تندفع في أثر بعضها البعض في محاولة محمومة لضمان مصالحها

الاقتصادية مع بلدان عديدة من المعمورة ، وبما أن مشاريع كبيرة كهذه لا يمكن القيام بها على مستوى الأفراد لذلك فقد رأينا دولاً أوروبية كثيرة تجند نفسها موظفة إمكانياتها المادية والبشرية لتنفيذ مخططاتها الرامية لإيجاد مناطق نفوذ لها في تلك الأراضي المترامية الأطراف من العالم القديم والجديد، وعلى هذا الأساس فقد اندفعت أرتال البعوث الاستكشافية ناشرة قلوع مراكبها في عرض البحار والمحيطات بحثاً عن منافذ جديدة وقريبة تسلكها في ذهابها وإيابها من وإلى تلك المناطق النائية من العالم، وقد أدى مثل هذا التسابق المحموم إلى صراع بحري عنيف بين الدول الأوروبية التي لم تستطع ـ بإزاء مطامعها ـ تفادي الاحتكاك المسلح ببعضها البعض، دفاعاً عما تراه مكسباً من مكاسبها في تلك الأراضي ، التي كانت السابقة إلى اكتشافها، ولعل هذا الصراع الذي احتدم بين هذه الدول قد أدى إلى ظهور فكرة توزيع العالم إلى مناطق نفوذ يخضع إلى مختلف القوى المسيطرة.

ومن الطريف أن نشير هنا إلى اقتراح (البابا) حسماً لهذا الصراع الذي يعيث فساداً بوحدة العالم المسيحي ـ

على كل من إسبانيا والبرتغال ـ وكانتا من الدول الأوروبية السباقة في وضع يدها على أجزاء كثيرة من العالم ـ بتقسيم الكرة الأرضية بينهما إلى شطرين متساويين وذلك بموجب مرسوم باباوي صادر في 4 مايو سنة 1493وكان من نصيب إسبانيا أن حصلت على جميع البلدان الواقعة غرب الجزر الخضراء، وحصلت البرتغال على جميع البلدان الواقعة في شرقها.

ومن المفيد أن نذكر هنا أن هذا الحل الذي ارتآه (البابا) على ما فيه من سذاجة قد أدى إلى منع نشوب الحرب بين الدولتين المتنافستين لبضعة قرون بعد ذلك.

والذي يمعن النظر في الدوافع الرئيسية التي تقذف بالهيئات والدول في ميادين الكشوفات بشتى مناشطها المختلفة كانت متنوعة بتنوع هذه الهيئات وتلك الدول غير أننا نرى في تلك المنافع الاقتصادية الهدف الرئيسي الذي يشكل حافزاً قوياً على أن تعمل هذه الدول كل ما بوسعها لتأمين مناطق نفوذ لها هنا وهناك من أجل تدفق السلع والبضائع الرخيصة عليها، وكان لبعض هذه السلع والبضائع (كالتوابل وأنواع البهارات، والعطور والعقاقير

الهندية والأفيون والكافور والصمغ وإلى ذلك من المنتوجات الشرقية) إغراء خاص لدى زبائنها الموسرين من السادة الإقطاعيين والامراء وأصحاب المال في جميع أنحاء أوروبا.

على أن نوايا الكشف الأوروبي لبلاد واسعة من العالم لم تكن مقصورة على تحقيق المنافع الاقتصادية وحسب بل أسندت بعض محاولات الاستكشاف على فكرة التسلط، والاستغلال والاستعمار، وكان لا بد أن يحدث هذا كنتيجة طبيعية للاحتكاك القوي بالضعيف، فأوروبا المتقدمة التي عقدت العزم على الدخول في علاقات مصلحية مع شعوب أقل تقدماً فإن الطرف الذي يقع عليه العبء هي الشعوب التي لم تسلب خيراتها، فحسب بل وقعت ضحية التسلط بدعوى حمايتها والحفاظ على مصالحها!

وقد رأينا كيف استثارت أوروبا الحمية الدينية وجندت قواها الشريرة فيما يسمى بالحروب الصليبية زاعمة أنها تريد انتزاع الأماكن المقدسة[1] من إيدي المسلمين في الوقت الذي كانت تبيت فيه النية المؤكدة للسيطرة على

(1) تمكن الصليبيون في حملتهم الأولى من احتلال مدينة القدس وذلك في عام 1099 م.

طرق الملاحة في البحر الأحمر، وفتح أسواق الشرق في وجه التجار الأوروبيين.

ولنفس السبب تقريباً قامت أوروبا بحروبها المتصلة لتحطيم ذلك الحاجز المنيع الذي أقامه أهالي شمال أفريقيا ـ طرابلس وتونس والجزائر والمغرب ـ في وجه الملاحة البحرية في البحر المتوسط فهذه دولة البرتغال تقدم في أولى حملاتها البحرية في عام 1413م على احتلال ميناء ـ سبتة ـ ومليلة ومن ثم تقوم بتنصيب هنري الملاح ـ حاكماً عليهما!؟

وقد مات هنري الملاح بعد أن دفع بشعبه في خضم الكشوفات، وقد مضت البرتغال قدماً في استكمال ما بدأه ذلك البحار المغامر، وأدى ذلك بالطبع إلى أن تضع هذه الدولة الصغيرة يدها على أجزاء واسعة من العالم!

وهذه إسبانيا تقوم ـ هي الأخرى ـ بعمل مماثل لما قامت به جارتها البرتغال من قبل فتقدم على احتلال ميناء طرابلس في عام 1530م كخطوة لتأمين مصالحها التجارية في حوض البحر الأبيض المتوسط ولا تزال هذه الدولة تحتفظ بمدينتي (سبتة) و(مليلة) المدينتين المغربيتين، كأثر

من آثار ذلك العهد الذي نشطت فيه حمى التوسع الإقليمي المتميز بالإثرة والأنانية للسيطرة على الشعوب وابتزاز خيراتها!

ولا يجب أن ننسى أن جزءاً مهماً من الأنشطة الاستكشافية التي قامت بها أوروبا في مناطق مختلفة من العالم خلال القرن التاسع عشر وما قبله ـ قد انصبت بصورة نشيطة ومحمومة على تحويل البلاد المكتشفة إلى إقطاعيات استعمارية ومناطق نفوذ اقتصادية وتكون عادة تلك التقارير التي كانت قد كتبت عنها وسيلة أولية لامتلاك الأرض، واستعباد الشعوب وأمثلتنا على ذلك كثيرة.

ويكفي الإشارة هنا إلى أن أسماء عديدة من كبار المستكشفين الأوروبيين في القارة الأفريقية كانوا ضالعين في خدمة المخططات الاستعمارية وكانوا الجسور التي حملت لأفريقيا أولى طلائع الاستعمار ممثلاً في شتى صوره ومختلف أغراضه .ومن المعروف أن المستكشف الفرنسي (البرازا) الذي ارتاد حوض نهر(آجو)في بعثتين منفصلتين الأولى عام 1875والثانية في عام 1880م ـ أي بعد ذلك بثلاث سنوات ـ كان يقوم بنشاطه في داخل أفريقيا لحساب الحكومة

الفرنسية ومدعوماً بمالها من أجل تنفيذ مخططاتها الاستعمارية في تلك البقعة النائية من أفريقيا، وفي المناطق المجاورة لها!؟

وهذا مواطن من بروسيا هو الدكتور غولييم ناختجال ـ والذي كان يعمل قنصلاً عاماً لإلمانيا في تونس ـ وكان هذا الرحالة الشهير قد استقر منذ عدة أعوام في أفريقيا الشمالية لاسباب صحية ودفعته الرغبة إلى زيارة بعض البلدان المجهولة نراه يقوم بمهمة كلفته بها حكومته: وهي تبليغ سلطان (بورنو) بعض الهدايا التي قرر أن يبعث بها إليه ملك بروسيا تقديراً منه لخدمات ذلك السلطان واعترافاً بفضله في المساندة التي قدمها للرحالين الإلمان الذين زاروا بلاده، وكانت من نتائج رحلاته في داخل أفريقيا في الفترة الواقعة بين عام (1869 — 1874)هو إعلانه الشهير عن قيام (توجولاند) محمية المانية!؟

○ **الصهيونية العالمية أيضاً.**

وقد نشطت المنظمة اليهودية في سعيها الحثيث لإيجاد وطن لسكنى اليهود، وكانت نواياها قد تحددت لإرسال بعوثها الاستكشافية لما كان يسمى (ببرقة) لدراسة إمكانية

إقامة مستعمرات زراعية يهودية بالجبل الأخضر، وما من أحد كان يشك في الأهداف الاستعمارية الاستيطانية التي كانت تخطط لها هذه المنظمة التي أرسلت ببعثتها الأولى إلى برقة، وفي يدها خطة غايتها واضحة، وأهدافها محددة، فكانت بعثة العالم الجيولوجي الإنجليزي البروفوسور جريجوري التي وصلت إلى البلاد في عام 1908بقصد التجول في الأراضي المرشحة لإقامة المستوطنات اليهودية عليها، وكان (في هذه البعثة المهندس الزراعي تروتر، والمهندس ميدلتون، والطبيب إدر)[1]

هذا (وقد سلكت البعثة الطريق المعتاد من درنة إلى قورينا ثم توجهت إلى مرسى سوسى وسلطنة ومسة ومنها إلى المرج ثم بنغازي وقد قطعت مسافة 885كم وانتهت إلى الحكم بعدم صلاحية (برقة) لتنفيذ فكرة الاستيطان وذلك بسبب قلة المياه)[2].

ويبدو أن المنظمة اليهودية لم تر في تلك (الملاحظات

(1) أتيليو موري (الرحالة والكشف الجغرافي في ليبيا) ص 79 ترجمة خليفة التليسي.

(2) نفس المصدر السابق ص 80.

العديدة التي تناولت الجوانب الجغرافية للإقليم والتي ضمنتها تقريرها)[1] الكلمة النهائية في تقييم الأوضاع في برقة على أساس إمكانية إقامة كيان يسمح لسكنى اليهود لذلك فقد احتاج الأمر إلى أن ترسل بالبرفوسور الفرنسي اليهودي (ناحوم شلوش) الذي كان عليه أن يمضي قدماً في وضع اللمسات الأخيرة على المشروع اليهودي في برقة وكان (شلوش) هذا مهتماً بدراسة تاريخ اليهودية القديمة في ليبيا مع نزوع علمي لتقييم الأوضاع العامة للسلالات البشرية للسكان الذين كانوا يقطنون الكهوف في منطقة طرابلس الغرب.

وكان من النتائج التي أسفرت عنها رحلة شلوش هذا إلى ليبيا هو ما نشره ضمن كتاب أسماه (رحلة في شمال أفريقيا) بناه على تقريره الخاص بمعاينته الميدانية التي جاءت كحصيلة لجولاته العلمية في بعض من أنحاء ليبيا على وجه الخصوص وقد صدر كتابه هذا في عام 1927.

ويبدو أن النتائج التي جاءت بها بعوث المنظمة اليهودية

(1) نفس المصدر السابق ص 80.

إلى برقة كانت غير مشجعة لوضع مخططاتها الرامية لاستيطان برقه[1] وذلك لاتفاق كلمتها على عدم وجود إمكانيات ملائمة تماماً لاستيطان أعداد كبيرة من اليهود فيها، مما جعل المنظمة تصرف النظر عن مخططها هذا[1].

ويمكن للمرء أن يتصور عظم المأساة وما يكون عليه الحال فيما لو أفلح اليهود في إحلال مشروعهم الاستيطاني هذا محل عمل وتنفيذ، وربما هذا الذي حدث في فلسطين العربية الآن كان سيحدث بأكثر منه ولكن الله سلم!؟

* * *

(1) يمكن للقارىء أن يتوسع في هذا الموضوع بالرجوع إلى كتاب ألفه الأستاذ مصطفى بعيو ونشرته الدار العربية للكتاب بعنوان (المشروع الصهيوني) ذلك أن الكتاب يتناول باستيفاضة الكثير عما كان خافياً في هذا الموضوع.

الليبيون فى خضم الكشف الجغرافى

استكمالاً لنواحي هذا البحث رأينا ـ باديء ذي بدء ـ أن نقف هنا في هذا الفصل عند تلك الجهود المستمرة التي بذلها الليبيون منذ القدم لارتياد مناطق واسعة من أفريقيا.

ومن حسن الحظ فقد احتفظ لنا التاريخ فيما احتفظ بما تم بشأن تلك الرحلة التي يحدثنا عنها المؤرخ هيرودوتس فقد تطلع سكان شمال أفريقيا منذ قرون بعيدة إلى معرفة الأراضي المحيطة بهم من ناحية الجنوب، وحاولوا أن يتجولوا فيها، ويكشفوا لنا عن بواطن أمورها الدفينة وراء حجب من الألغاز والأسرار.

وكانوا فتية من أهل برقة القديمة دفعهم الفضول وحب الاطلاع إلى عبور القفر من ذلك الشمال إلى جنوبه تاركين مساكنهم المترفة في مدن برقة وبدأوا رحلتهم الطويلة عبر الصحراء، ومشوا حتى أعياهم المشي ، واتجهوا غرباً حتى أتوا إقليم الحيوانات المفترسة، وعبروه بعد لأي إلى أن رأوا على البعد رؤوس أشجار، وأرضاً كأنها منبسطة فحثوا المسار إليها فإذا بقوم صغار القامة ـ أقل في ارتفاعهم عن الشخص الوسط ـ ينقضون عليهم من كل جهة وجانب، ويحملونهم قسراً إلى حيث يقيمون، وأرادوا الحديث إليهم فلم يتيسر لهم ذلك فما فهموا من لغة الناسامونية التي كانوا يتحدثون ولا فهم هؤلاء عنهم شيئاً مما يقولون فقد رأوا أراضي فسيحة كثيرة العشب والمياه الراكدة حتى أتوا بهم إلى مدينة ليس فيها سوى هؤلاء القوم صغار القامة سود الوجوه ، وكانت المدينة على نهر عظيم تجوب أقطاره التماسيح بسير من الغرب صوب الشرق.

وقد وردت قصة أولئك الفتيان النسامونيين وما يتصل بها من تفاصيل على نحو ما أوردنا ذكره عند بعض المؤرخين في معرض حديثهم عن المبادرات الكلاسيكية

التي قام بها سكان شمال القارة الأفريقية لاكتشاف الأراضي الواقعة جنوب الصحراء، ويرجع البحاثة باذل دافيدسن في كتابه (أفريقيا تحت أضواء جديدة ص66 و 76 أن القصة سالفة الذكر قد انتقلت إلينا بعد أن وجدت طريقها إلى مسامع ((أتيرخس) من ملوك (آمونيا) الذي كان يعيش قرب مدينة درنة الحديثة على الساحل الشرقي من ليبيا، في وقتهم ذاك فأعادها هو على مسامع خاصته في برقة حيث كان عرشه وسلطانه، وهم الذين أذاعوها على الملأ حتى جاء (هيرودوتس) الإقليم وسجل في تاريخه الشهير هذه النبذة التي سمع من أخبار هذه المغامرة الجريئة التي قام بها فتية ناسامونيون في ما وراء الصحراء الكبرى!؟

ومما سبق ذكره يتضح لنا أن محاولات الكشف في داخل أفريقيا لم تكن محاولات مقصورة على المحدثين من أبناء القرن التاسع عشر، بل إننا نكاد نجزم بأن هذه المحاولة قد تلتها سلسلة أخرى من المحاولات التي قام بها الليبيون في أفريقيا عبر القرون التي توالت بعد ذلك، وقد أكد الجغرافيون بما لا يدع مجالاً للشك (بأن الصلات بين

الشمال الأفريقي وجنوبه كانت موجودة عبر الصحراء، وهذه الصلات تفصح عن عراقة ذلك الاهتمام الذي بدأه أهل الشمال بالجنوب، وليس أبداً من قبيل الصدفة وحدها أن يحاول شباب درنة إقتحام مجاهل الصحراء دون أن يكون قد سبق أن عرفوا بمحاولات أخرى مماثلة إذ من المعقول جداً أن يكونوا قد اتبعوا طريقاً ما عرفها أحد من قبل، ولكنهم لم يدخلوا ظلام الصحراء دون أن يسمعوا أن غيرهم قد فعل، ويرجح باذل دافدسن أن قصص القرامانتيين ممن غامروا في متاهات الصحراء لا بد وأنها وصلت مسامعهم فتحمسوا لها وحاولوا أن يقوموا برحلة ناسجين على منوالها) ونحن إذا كنا نعترف بأن (تاريخ الاكتشافات الجغرافية لليبيا قد بدأ مع مطلع القرن التاسع عشر (إلا أنه) لا يعني ذلك أنه لم تتوفر، قبل هذا التاريخ معلومات وتقارير عن تلك البقاع ولكنها كانت في أغلبها مقتصرة على انطباعات أشخاص اكتفوا بزيارة المراكز الساحلية واعتمدوا على المصادر الكلاسيكية فيما يتصل بالإقاليم الداخلية أو على خطط وأخبار التجار من الأهالي).

والحقيقة أن الدراسات الأفريقية التي انتعشت في عصرنا هذا قد بدأت تساعدنا اليوم أكثر من أي وقت مضى على التوسع في معرفة الأشياء الكثيرة عن الصحراء الكبرى كما أصبح بإمكاناتنا اليوم أن نقتفي أثر تلك الجهود فنعجب من امر تلك المباذل التي قدمها الليبيون في سبيل ارتياد أراضي واسعة من أفريقيا.

وقد ظهر إصرار سكان شمال أفريقيا على استمرار اتصالاتهم بجنوب الصحراء (فجيء بالجمل من آسيا في القرن الثاني قبل الميلاد ليسر لهم عبور المفازات الرملية الهائلة التي تفصل ما بين شمال القارة ووسطها (وكان استعمال هذا الحيوان الجديد فتحاً في تاريخ العلاقات التجارية لأنه جعل التبادل وقفاً على العناصر الأفريقية وحدها بعد أن كان الأوروبيون طرفاً هاماً فيه، ونتيجة لذلك فقد شهدت مدن البحر الأبيض الأفريقية عصراً جديداً من الرخاء والإزدهار وأصبحت بحق وسيطاً هاماً بين أوروبا وجنوب الصحراء، وما إن جاء القرن الميلادي الأول حتى بدأت خطوط القوافل تتكون، وتنمو نمواً سريعاً، وكانت النهايات الشمالية لطرق القوافل تتمثل في

بعض المدن كفاس، ومراكش، والقيروان وطرابلس)[1].

وقبل مجيء المكتشفين الأوروبيين إلى أفريقيا ليبدأوا عملهم في حقول شتى من حقول الاستكشاف كان الأفريقيون الذين يعيشون على حافة الصحراء أو في جنوبها قد تكونت لديهم على مدار الزمن معلومات كثيرة ذات نفع لهم عن أنحاء واسعة من الأراضي المجاورة لهم وإذا كانوا لم يتمكنوا - بسبب تفشي الأمية فيما بينهم - من إدراك قيمة ما كان لديهم من علوم أفريقية ذات قيمة عظيمة (ناهيك بأن يبادروا بتدوينها ونشرها وتعميمها) إلا أن نفراً قليلاً منهم قد فطن بفطرته إلى أهمية تدوين ما كانوا يعتقدونه علماً أفريقياً يعنى بجوانب عديدة من أحوال المناطق التي تمكنوا من زيارتها لسبب ما من الأسباب، نذكر هنا على سبيل المثال عبد الرحمان السعدي[2] أحد أبناء (تمبكتو) الذي ارتحل في أراض واسعة من السودان الغربي وذلك

(1) خي بابا شياخ (الجاليات الليبية في غرب أفريقيا) مجلة الوحدة العربية العدد 43 السنة الرابعة.

(2) ولد هذا العالم في تمبكتو عام 1596م.

بحكم عمله كوسيط في الخلافات القبلية هناك، وتمكن من جمع تجاربه وخبراته ومشاهداته في تلك الأنحاء من أفريقيا في سفر واحد أسماه (تاريخ السودان) وكان لهذا الكتاب بعض الفوائد لكل من أتيح له الإطلاع عليه من الرحالة الأوروبيين خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر للميلاد، ومن المؤكد أنهم قد وجدوا فيه الكثير من المعلومات التي تعد ذات قيمة عظيمة في فتح مغاليق الأسرار الخفية لمنطقة تتميز بأهمية خاصة في خطط المستكشفين لأفريقيا على اختلاف جنسياتهم. ويكفي أن نشير هنا أن في مقدمة المنتفعين بهذا الكتاب هو الرحالة الإلماني الشهير هاينريش بارت الذي أتيح له الإطلاع عليه، والإستفادة بما كان يضمه من معلومات وخبرات ذلك المؤرخ التمبكتوي الذي عاش خلال القرن السابع عشر.

على أن مؤرخنا السعدي لم يكن الأفريقي الوحيد الذي يدون ما تواتر من أخبار ومشاهدات وأحداث في ما كان يسمى بالسودان الغربي فهناك (محمود كاتي) الذي ألف كتاباً أسماه (تاريخ الفتاش) الذي أرخ فيه لهذا الجزء من أفريقيا بما يحفظ لنا الكثير من مظاهر الحياة بزخمها وتنوعها

بعض المدن كفاس، ومراكش، والقيروان وطرابلس)[1].

وقبل مجيء المكتشفين الأوروبيين إلى أفريقيا ليبدأوا عملهم في حقول شتى من حقول الاستكشاف كان الأفريقيون الذين يعيشون على حافة الصحراء أو في جنوبها قد تكونت لديهم على مدار الزمن معلومات كثيرة ذات نفع لهم عن أنحاء واسعة من الأراضي المجاورة لهم وإذا كانوا لم يتمكنوا ـ بسبب تفشي الأمية فيما بينهم ـ من إدراك قيمة ما كان لديهم من علوم أفريقية ذات قيمة عظيمة (ناهيك بأن يبادروا بتدوينها ونشرها وتعميمها) إلا أن نفراً قليلاً منهم قد فطن بفطرته إلى أهمية تدوين ما كانوا يعتقدونه علماً أفريقياً يعنى بجوانب عديدة من أحوال المناطق التي تمكنوا من زيارتها لسبب ما من الأسباب، نذكر هنا على سبيل المثال عبد الرحمان السعدي[2] أحد أبناء (تمبكتو) الذي ارتحل في أراض واسعة من السودان الغربي وذلك

---

(1) محي بابا شياخ (الجاليات الليبية في غرب أفريقيا) مجلة الوحدة العربية العدد 43 السنة الرابعة.

(2) ولد هذا العالم في تمبكتو عام 1596م.

بحكم عمله كوسيط في الخلافات القبلية هناك، وتمكن من جمع تجاربه وخبراته ومشاهداته في تلك الأنحاء من أفريقيا في سفر واحد أسماه (تاريخ السودان) وكان لهذا الكتاب بعض الفوائد لكل من أتيح له الإطلاع عليه من الرحالة الأوروبيين خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر للميلاد، ومن المؤكد أنهم قد وجدوا فيه الكثير من المعلومات التي تعد ذات قيمة عظيمة في فتح مغاليق الأسرار الخفية لمنطقة تتميز بأهمية خاصة في خطط المستكشفين لأفريقيا على اختلاف جنسياتهم. ويكفي أن نشير هنا أن في مقدمة المنتفعين بهذا الكتاب هو الرحالة الإلماني الشهير هاينريش بارت الذي أتيح له الإطلاع عليه، والإستفادة بما كان يضمه من معلومات وخبرات ذلك المؤرخ التمبكتوي الذي عاش خلال القرن السابع عشر.

على أن مؤرخنا السعدي لم يكن الأفريقي الوحيد الذي يدون ما تواتر من أخبار ومشاهدات وأحداث في ما كان يسمى بالسودان الغربي فهناك (محمود كاتي) الذي ألف كتاباً أسماه (تاريخ الفتاش) الذي أرخ فيه لهذا الجزء من أفريقيا بما يحفظ لنا الكثير من مظاهر الحياة بزخمها وتنوعها

وطرائقها، سجلت بقلم شاهد عيان عاش حقائقها، وتمرس بخبراتها!

ويقدم لنا البحاثة باذل دافدنس في كتابه (أضواء جديدة على أفريقيا) ما للكتابين ـ نقصد (تاريخ السودان)، (وتاريخ الفتاش) لكلٍ من السعدي وكاتي ـ من المكانة العلمية فيذكرهما منوهاً بهما ويخصهما بأبلغ عبارات الثناء. يقول في سياق حديثه عنهما بأنهما:

تحفتان نادرتان في تاريخ الأقاليم يزيد في قدرهما العلمي أنهما يتصديان لحقائق شاهدها العالمان وخبرات عاشاها، ويسجلان صوراً ممتعة لتلك العهود خاصة صور الحياة الريفية والعقلية!

وإذا علمنا أن الليبيين كانوا من أنشط تجار شمال أفريقيا، وأكثرهم إرتحالاً في داخل أفريقيا أو ما يسمى بالسودان الغربي فإننا بالتالي لا يجب أن نبخس من قدرهم في معرفة بلاد واسعة من جنوب الصحراء ـ وهم وإن لم يتركوا لنا في هذا السبيل مدونات مكتوبة عن واقع اتصالاتهم بتلك البلاد، واحتكاكهم احتكاكاً مباشراً بها إلا أنه من ناحية عملية قد أسهموا في رفع الكثير من مغالق

الأسرار حول ما يغمض من أمور تلك البلاد. فنحن نعلم بأن التجار الليبيين كانوا مولعين بنقل الكثير من أخبار البلاد التي وفدوا عليها خلال رحلاتهم التجارية، وكانوا يروونها للناس في شكل ما من أشكال القصص والحكايات التي كانت ـ لطرافتها ـ تنتشر بين الناس انتشار النار في الهشيم، وليس ببعيد أن تجد هذه القصص والحكايا طريقها إلى أسماع بعض المستكشفين الأوروبيين الذين وفدوا على ليبيا، وقصر بهم أسباب الارتحال إلى مدى أبعد منها، فوجدوا في هذه القصص والحكايا عزاءً يعوضهم على ما فاتهم منها بالمعايشة، والمعاينة والمراقبة الشخصية، وهكذا راحوا يدونونها في تقاريرهم عن أفريقيا[1].

على أنه ما من أحد ينكر ما لليبيين من أفضال وأيادٍ بيضاء على جهود الكشف والرحالة الأوروبية في ليبيا

(1) بالرجوع إلى يوميات المستكشف القبطان جورج فرنسيس ليون ـ الذي بدأ ترحاله في الجزء الجنوبي من ليبيا عام 1819 ـ نجد العديد من هذه القصص والحكايا التي التقطها من أفواه الناس وأثبتها هكذا على نحو ما تواترت إليه أنباؤها. ومما هو معروف أن ليون هذا لم يتخط في رحلته الإستكشافية إقليم فزان ومنطقة تيبستي.

وداخل أفريقيا، فالانتصارات الباهرة التي حققها أولئك المستكشفون على مختلف الأصعدة هي مدينة بقدر كبير من المعونات التي قدمها الأفراد والسلط، وتحملوا جانباً كبيراً من المسؤوليات التي تتعلق بالأمن، والإرشاد، والتوجيه، والتي سمحت بإعطاء قدر كبير من الفرص للتغلغل في ميادين الأبحاث والتنقيب والكشف. وقد كانت هذه المعونات ضرورية بل هي لازمة لزوماً يتسم بالحيوية لكل برنامج كشفي وضع قيد التنفيذ، فقد كانت طبيعة العمل المتصل بالكشف ـ سواء في ليبيا أو إنطلاقاً منها إلى ما وراء الصحراء ـ تحتاج إلى معونة الليبيين على مختلف الأصعدة فهم أولاً وقبل كل شيء يعتبرون من أوثق الناس علماً بالتنقل عبر الأراضي الليبية وأكثر خبرة بطرقها ومسالكها ومفازاتها، فضلاً عما هو لديهم من خبرة بأراضٍ واسعة من جنوب الصحراء أو ما كان يسمى بالسودان الغربي، تلك الخبرة التي اكتسبوها على مر الزمن بحكم اتصالهم الوثيق بسكان تلك المناطق بحكم التجارة النشيطة التي كانوا يقومون بها على الدوام.

وفي مقابل هذا فإننا نجد أن الحماية التي توفر

للمكتشفين الأوروبيين قدراً من حرية الحركة والتحرك كانت لازمة أيضاً عبر تلك المناطق البعيدة التي تعتبر معادية لهم من بعض الوجوه. وقد ثبت بأن الدعم الرسمي الذي كانت تقدمه لهم السلط الحكومية في طرابلس يعتبر غير ذي قيمة تذكر إذا لم يكن مسنوداً بمباركة الأهلين في مناطقهم التي تعد من ناحية عملية شبه مستقلة.

ويجمل القول بأن الخدمات التي أسداها الليبيون ـ سواء أكانوا أدلاء أو مرافقين أو منفذين أصحاب قوافل ـ إلى بعوث الكشف والرحالة، الأوروبية في ليبيا وداخل أفريقيا كانت دعماً منشطاً، وباعثاً على العمل في كل خطوة من خطواتها ولسنا ندري كيف كان بإمكان هذه البعوث أن تقوم حتى بالقليل من منجزاتها الكشفية بدون كفالة وضمانة ومعونة الليبيين؟ وكيف يمكن للمرء أن يرى جهودها وقد وضعت في موضع العمل والتنفيذ أساساً بدون أن يتوفر لها تلك المساندة على اختلاف أنواعها، وأشكالها؟

إن تلك المساندات التي قدمها الليبيون إلى بعوث الكشف والرحالة الأوروبية في ليبيا وداخل أفريقيا كان

عليها المعول الرئيسي ولولاها لما عرفنا تلك الإنجازات التي حققتها في ليبيا وداخل أفريقيا وهي إنجازات تتسم بالتنوع والثراء والزخم العلمي الذي رأينا له نتائجه في كل ميدان من ميادين المعرفة وعلى نحو ما نجده عند ذلكم المستكشفين العلماء الذين باشروا أعمالاً ذات قيمة علمية على مختلف الأصعدة (ساعدت دون شك على توسيع معارفنا ببلادنا وبأجزاء أخرى من أفريقيا، وعلى نحو ما أسفرت عنه جهود كل من (ريتشي، وليون، وأودني ودنهام وكلا برتون وريتشاردسون، وأوفيروج، وبارث وفوجل ودلا شيلا، وهوغرمان، ولوكاس)، وغيرهم كثير من الذين قادتهم رحلاتهم إلى نتائج ذات أثر واضح على زيادة معارفنا بليبيا وأجزاء كثيرة من إفريقيا على وجه العموم.

أوروبا تلقي بنفسها في خضمّ الكشف الإفريقي

من الملاحظ أن هناك مرحلة طويلة من الزمن فتر فيها الاهتمام لدى الأوروبيين لمتابعة الإنجازات الاستكشافية العظيمة التي كانوا قد بدأوها في العصر الوسيط وقد استمر هذا الفتور بعد ذلك لأكثر من قرنين من الزمان قبل أن تستدرك أوروبا حماسها القديم إلى أعمال الكشف والرحالة ويعزو أحد الباحثين الأمريكيين هو جيمس تومسون في واحدة من محاضراته[1] ذلك الركود الذي خيم على الحركة

(1) جاء في محاضرته التي نشرت تحت عنوان (حضارة عصر النهضة) ما يفيد هذا المعنى.

الاستكشافية الأوروبية في المرحلة التي ذكرناها إلى اشتداد ساعد القوى الوطنية، ونشاط الدول المطلة على الساحل الأطلسي - وهي البرتغال، وإسبانيا وإنجلترا - الأمر الذي جعل أوروبا تتناسى ما كان لها في الماضي من صولة وجولة في ميادين الكشوفات الجغرافية في كل من آسيا وأفريقيا!

ولكن ما إن جاء القرن الثامن عشر حتى بدأت أوروبا تلقي بنفسها من جديد في خضم الكشوفات والرحالة وذلك وفق أسلوب جديد لمفهوم الكشف وأغراضه وما يتصل به وذلك حسب ما عرضنا إليه في الفصل السابق - وبدا واضحاً للعيان أن برنامج أوروبا في الوصول إلى داخل القارة الأفريقية أصبح يتم تحت شعارات مختلفة، وإن ظل هدف الإستيلاء على خيرات هذه البلاد هو من أبرز تلك الشعارات التي رفعتها أوروبا وإن عملت الأخيرة على إخفائها تحت أسماء كثيرة.

ولعل أهم ما تتميز به هذه المرحلة الجديدة من مراحل الكشف والريادة الأوروبية في داخل القارة الأفريقية هو ظهور قيادات موجهة ومنظمة بدأت تعمل من مختلف عواصم أوروبا على التخطيط المبرمج لمشاريعها

الاستكشافية ، وتدعيمها بالمال والرجال المعدين إعداداً جيداً، والإنطلاق بقوة دفع جديدة مرتكزة على أساس علمي يحقق لها برنامجها الواسع في مجالات سياسية واقتصادية وإنسانية.

ولعل أوروبا، وهي تخطو خطواتها الأولى في هذا السبيل كانت مدفوعة بقناعتها الكاملة من أن تلك الإنجازات الاستكشافية التي كانت تتم بواسطة المغامرة الفردية وفي ظروف خاصة ، وبواعث غير منظمة لم تجد في الوصول إلى أهدافها المعلنة، وغير المعلنة على نحو ما كانت تريد، ومن هنا فقد رأت أن ترسي قاعدة جديدة تنظم تلك الجهود الفردية المبعثرة وتعمل على توجيهها في الإطار الصحيح، ولعل هذا التحول الذي دفع بأوروبا إلى توجيه جهود الكشف الجغرافي في هذا المسار الجديد كان يدفع إليه - أيضاً - أن تلك المشاريع كانت من العبء، والجسامة والخطورة بحيث لا يمكن أن يترك أمرها للأفراد العاديين، الذين لا يستطيعون أن يتحملوا بها وحدهم دون عون أو مساعدة أو توجيه من أحد. فأوروبا - بعد ذلك لم تعد قانعة بالمعلومات المتعلقة بالبحار التي خلفتها الجهود

المتصلة بمنجزات، هنري الملاح، وكروستوفر كولومبس وإن وقوفها على أبواب القارة الأفريقية قد طال كثيراً دون أمل يذكر في الوصول إلى أعماقها وقهر أرضها المستعصية على الارتياد!؟.

كل هذا قد دفع بأوروبا بأن تسلم قيادها في مجال الكشف والإرتحال داخل القارة الأفريقية إلى هيئات وجمعيات استكشافية تتمتع بقدر كبير من مساندة الدول، ودعمها المادي والمعنوي، فعن طريق هذه الهيئات ، والجمعيات الأوروبية، اتسع نطاق الكشف الجغرافي في داخل القارة الأفريقية، حيث بدأت البعوث المنظمة ، تنطلق من العواصم الأوروبية، وفي يدها برنامج محدد، وخطة متفق عليها ومشاريع معينة، ولعل ليبيا لم تكن الهدف الأساسي من معظم تلك البعوث التي أرسلت إلى القارة الأفريقية، لأن تلك البعوث كانت تهدف في أساسها إلى اكتشاف المناطق الداخلية من القارة الأفريقية ـ ولكن ليبيا كانت البوابة المناسبة للولوج إلى داخل القارة (وقد عاد هذا بفوائد عظيمة في مجال اكتشاف ليبيا)[1] فقد عرفت

(1) أتيليو موري (الرحالة والكشف في ليبيا) ص 54 ترجمة خليفة التليسي.

ليبيا على مدار عقود متصلة من القرن الثامن عشر والتاسع عشر، وبداية قرننا هذا بعوثاً أوروبية كثيرة جاءت تباعا من مختلف العواصم الأوروبية تتلمس طريقها إلى أعماق القارة الأفريقية، وقد ظلت بلادنا لأزمنة طويلة بعد ذلك هدفاً رئيسياً، ونقطة البدء في معظم تلك الإنجازات الاستكشافية الضخمة التي حققتها أوروبا في داخل القارة، حتى يكاد يكون من النادر أن نجد رحالة أوروبياً عرف طريقه إلى قلب القارة دون أن تكون الأراضي الليبية هي نقطة البدء، وخط الإنطلاق.

وهكذا فإننا نرى أنه كان على تلك البعوث أن تقوم أولاً بجهود واسعة النطاق في الأراضي الليبية تمهيداً لمعرفة ظروف التحرك في أرجائها ومن ثم اكتشاف أسهل وأقرب المسالك المؤدية إلى البلاد الأخرى الواقعة خلف الصحراء الكبرى، فقد كانت هذه (رغم ظروف الجدب والجفاف تمثل الطريق الطبيعي إلى بلاد السودان وليس الطريق البحري، ويعللون معرفة العرب، وتأخر معرفة الأوروبيين لقلب أفريقيا لصعوبة التوغل في الداخل خاصة لوجود الغابات التي حالت بكثافتها ، وصعوبة المواصلات فيها دون

توغلها في داخل السودان كما أن كشف نهر النيجر ذاته لم يكن عن طريق مجراه ولكن عبر الصحراء الكبرى)[1].

وبالنظر لما تمثله الأراضي الليبية من أهمية حيوية بالنسبة إلى الاستكشافات الأوروبية في داخل أفريقيا الوسطى، فقد شهدت عبر القرنين الثامن والتاسع عشر صراعاً دولياً على احتكار مركزها الجغرافي كقاعدة للوثوب على مناطق مختلفة مما يلي الصحراء الليبية. وكانت حلبة الصراع قد اتسعت رقعتها، وزاد عدد الوالجين فيها باضطراد، وبات الهدف المرجو هو الفوز بأفضليات معينة من متنفذين، وباشوات تلك العهود، وقد يتفاقم ذلك الصراع بين المتنافسين ويبلغ حداً يتردد صداه في السياسة الداخلية في ليبيا.

ومهما يكن من أمر فإن الجهود المحمومة التي بذلتها أوروبا في حقل الكشوفات الجغرافية قد أدت كما هو معروف إلى ارتياد أراضي واسعة من وسط أفريقيا، وهي تضم العديد من المناطق التي كانت من قبل مجرد لغز محير

(1) زاهر (كشف أفريقيا) ص 17 — 28.

يخالطه الوهم، ولم يتم هذا إلا بفضل تضحيات كبيرة قدمت فيها أوروبا أرواح العديدين من رجالها الذين ماتوا وهم يؤدون واجبهم في رفع الأوهام عن كاهل القارة المظلمة، (وتوفير المادة التي تقوم عليها المعرفة العلمية الصحيحة بها)[1] ومن كان علينا أن نخصص جزءاً كبيراً من هؤلاء الرجال الذين حملوا على الإنسانية هذا العبء، فشقوا طريقهم إلى قلب القارة غير عابئين بما ينتظرهم من مخاطر تترصد لهم في كل خطوة من خطواتهم من أجل أن بلوغ أهدافهم في توسيع معارفنا بأجزاء كبيرة من ليبيا، وأنحاء أخرى من القارة السوداء.

ولا حاجة بنا إلى العودة إلى الحديث عما كان يخالط اتجاهاتهم من نوايا، ومرام وأغراض فقد فصلنا القول في ذلك في الفصل السابق من هذا الكتاب ولم يبق علينا الآن إلا أن نحاول عبر الفصول التالية أن نتحدث بشيء من الموضوعية والتجرد عن إنجازات بعضهم خصوصاً من كانت له صلة وثيقة بالجهود المتصلة بالكشوفات الجغرافية

(1)

التي دارت على الأرض الليبية ـ وغايتنا من ذلك التذكير بأسماء، لعبت دوراً حيوياً في اكتشاف ليبيا في العصر الحديث.

الكولونيل فردريك هـ. وارنجتون

استكمالاً لنواحي هذا البحث رأينا أن نفرد الصفحات القليلة التالية لاستجلاء بعض الجوانب ذات العلاقة بقنصل بريطانيا في طرابلس الكولونيل فردريك هـ. وارنجتون،وأكثر ما كان يلح علينا في إدماجه ضمن هذه الدراسة هو: كثرة تردد اسمه في حقل الاستكشافات الأوروبية في ليبيا وداخل أفريقيا، وارتباطه بها على نحو بات معه لصيقاً بمعظم ما تم منها من إنجازات باهرة خلال سنوات طويلة من عمله الدبلوماسي كقنصل بريطانيا لدى بلاط يوسف باشا القره مانلي.

من المعروف أن فردريك هـ. وارنجتون قد بدأ عمله

الدبلوماسي في طرابلس، في أواخر شهر نوفمبر 1814، وإمتد عمله الدبلوماسي بصورة منتظمة إلى عام 1845 على أقل تقدير، وكان شخصية ذات نفوذ واسع النطاق في الوسط الدبلوماسي في طرابلس فقد كان - فضلاً عن كونه قنصلاً معتمداً لبريطانيا لدى حكومة طرابلس الغرب، - نراه يقوم بتمثيل دول أخرى عديدة في أوروبا كهانوفر، والبرتغال، ومملكة الصقليتين وهولندا، والنمسا، وبروسيا، وتوسكانا، وبالنظر لمكانته الدبلوماسية هذه فقد استطاع أن يحوز دائماً على أسبقية ملحوظة على جميع القناصل، وبلغ بهذه المكانة الرفيعة ما يؤهله أن يكون بمثابة العميد للسلك الدبلوماسي الأجنبي في طرابلس وحسب ما هو معروف في اصطلاح هذه الأيام!؟

والحق، فقد كان فردريك وارنجتون شخصية مؤهلة تماماً لتحتل مثل هذه المكانة الرفيعة بين سواد القناصل الأجانب المعتمدين لدى حكومة طرابلس الغرب. فقد كان معروفاً بالإنضباط ، وعدم التهاون، والحزم، وقوة الإرادة، وأيضاً إنتهازياً مرائياً فضلاً عن كونه مفاوضاً لبقاً، وشديداً في كل مسألة تخص بريطانيا!؟

ولعل اختياره ليمثل بلاده لدى حكومة طرابلس الغرب لم يكن قد تم بمحض الصدفة في وقت تزايد فيه الشعور بأهمية الدور الذي بات على طرابلس أن تلعبه كبوابة تفضي إلى داخل أفريقيا التي غدت مطمح الدول الكبرى في أوروبا في مجال الكشف والتجارة والاستعمار. ولم يكن بمحض الصدفة ـ أيضاً ـ أن يتزامن وجود هذا القنصل البريطاني القدير في هذا الوقت الذي تدافعت فيه القوى المتناحرة على خوض، وارتياد القارة على نحو ما سوف نراه في فصول هذا الكتاب.

ومن هنا فإننا لا نكاد نرى لهذا القنصل حضوراً في الأحداث الدائرة في عصره قدر حضوره في تلك الأحداث التي لها ارتباط وثيق بشؤون الكشف والرحالة في ليبيا وداخل أفريقيا ـ وقد عرف فردريك وارنجتون كيف يستثمر نفوذه السياسي الكبير لدى حكومة طرابلس الغرب في الحصول على الإمتيازات الكبيرة التي تكفل لبريطانيا أسبقية الوصول إلى داخل أفريقيا، كما نجد في هذا ما يلبي نوازعه الشخصية في أن يرى بلاده وقد حققت سبقاً على ما عداها من الدول الأوروبية في ميادين الكشوفات الأفريقية.

وقد كان (وارنجتون) يجاهر بحق بريطانيا في احتكار الكشوفات الجغرافية في داخل أفريقيا ويقيم الحجة على مناوئيه من أن ذلك الطريق الذي يؤدي إلى داخل أفريقيا كان قد اكتشف بجهود بريطانية، صرفة، اقترنت بالتضحيات الباهظة التي كلفتها حياة العديدين من أبنائها عبر محاولات مريرة ودامية بذلت بوفرة وسخاءٍ من أجل ارتياد القارة!؟

ومن أجل أن تبقى القارة الأفريقية مجالاً فسيحاً أمام المكتشفين الإنجليز أو الذين يعملون لحساب إنجلترا من غير الإنجليز فإن (فردريك وارنجتون) كان يلح على بلاده في إرسال البعوث الاستكشافية إلى ما ورا الصحراء الليبية، ومن أجل ألا يكون هذا الميدان في متناول البعوث الاستكشافية من غير الإنجليز، فكان أكثر ما يسوؤه هو أن يرى هؤلاء، وقد جاؤوا ليقتسموا مع بريطانيا ثمرة نجاحاتها في الولوج داخل القارة.

وكان الشعور بأهمية أن تكون المبادرات ذات الأهمية القصوى في التحرك لاكتشاف وسط القارة الأفريقية في يد الإنجليز، قد جعل فردريك وارنجتون يعمل بهمة،

وصبر، ومجالدة لتذليل كل الصعوبات التي تقف حائلاً في سبيل البعوث القادمة من بريطانيا للقيام باستطلاعاتها في ليبيا أو في ما وراء الصحراء الليبية، فكان يعرف كيف ينتزع لها الضمانات من لدن الباشا في حكومة طرابلس (وكان الأخير لا يلقي بالاً لما كان وراء تلك البعوث من نوايا، وكان يكفيه منها ما يتحصل عليه من مال في نظير ما يقدمه من تسهيلات لها) وهو يقدم لها الرعاية اللازمة ويتكفل باستضافتها؛ وإعداد المرافقين لها، فضلاً على ما يتطلبه تحركاتها في داخل أرض مجهولة وفي وسط متساكنين أعداء، وإن عليه بعد ذلك كله إيجاد الضمانات اللازمة لوصول التقارير التي يعدونها عن واقع كشوفاتهم إلى نقطة تجمعها في لندن.

إن الكولونيل فردريك . هـ. وارنجتون، كان ولمدة تصل إلى أكثر من ثلاثة عقود وثيق الصلة بمختلف المناشط التي دارت في مجال الكشف الجغرافي - سواء ذلك الذي يقتصر أمره على ليبيا، أو يتخذ من الأخيرة قاعدة للإنطلاق إلى ما وراء الصحراء إلى داخل أفريقيا كان من هذه الناحية شديد الالتصاق بهذه المناشط التي تتخذ من الكشف

والرحالة مجالاً لها ومن أجل هذا فقد أفردنا له هذه الصفحات القليلة تتبعنا فيها بعض جوانب من سيرته.

ولا يفوتنا هنا أن نشير إلى أن تلك الهيبة وذلك النفوذ اللذين كانا لوارنجتون في الوسط الدبلوماسي في طرابلس وما يتصل بذلك من فوائد لمصلحة الكشوفات الجغرافية في ليبيا وداخل أفريقيا نجد لها آثارها القوية في مساندة الجهود التي بذلها ابنه (وانجتون) الذي كان معتمداً كقنصل بريطانيا في ولاية طرابلس الغرب العثمانية من بعد والده، وكان يشغل منصبه هذا بدءاً من عام 1849 حيث يطالعنا اسمه في الأنشطة الاستكشافية بعد ذلك أو لعل أهمها على الإطلاق ما يتصل منها ببعثة هانريش بارت التي سبق الحديث عنها باعتبارها أضخم إنجاز عرفته البعوث الجغرافية في ليبيا وداخل أفريقيا.

فريدريك هورنمان وسياحته عبر الصحراء الليبيه

(1797 — 1800)

كان صيف عام 1788 م قد شاهد ظهور (الجمعية الإنجليزية لاكتشاف أفريقيا الوسطى) في العاصمة البريطانية لندن، وقد عملت هذه الجمعية منذ تأسيسها على تحقيق أهدافها المعلنة في تنشيط حركة الكشف في داخل أفريقيا، يحدوها في ذلك ـ كما يقول أحد البحاثة الإيطاليين ـ حب العلم وحده المنزه عن المصالح ـ وقد استهلت هذه الجمعية نشاطها الكشفي (بإرسال بعثة إلى إقليم النيل الأعلى التي عهدت بها إلى البحّار الجريء لديارد الذي مات في القاهرة سنة 1788 إثر مرض أصابه هناك)[1].

(1) أتيليو موري (الرحالة والكشف الجغرافي في ليبيا) ص 8 ترجمة خليفة التليسي.

وكان من نتائج البعثة التي قامت بها لديارد في أعالي النيل أن (اقتنعت الجمعية بإتخاذ ميناء طرابلس نقطة إنطلاق لبعثاتها)[1] الرامية إلى الوصول المبكر إلى اكتشاف أجزاء من الأراضي الواقعة ضمن الصحراء الأفريقية والوقوف على خفاياها وأسرارها الجغرافية.

والحقيقة كانت الأراضي الأفريقية الواقعة ضمن المخطط الكشفي لهذه الجمعية تعد من أكثر الأراضي الأفريقية استعصاءاً على الخضوع إلى تحركات رجال الكشف والرحالة الأوروبيين، ومن هنا فإننا نرى هذه الجمعية ـ تحسساً منها للوضع في هذه الأراضي المحفوفة بالمخاطر ـ قد لجأت لإعداد برنامج يحتوي على مخطط تدريجي لكسر ذلك الحاجز الصحراوي وفتح الطريق أمام بعوثها الاستكشافية إلى داخل أفريقيا، وكان الإنجليزي (وليم لوكاس) أول مبعوث للجمعية لتنفيذ مخططها الأول في رحلة استطلاعية تنطلق من طرابلس وتمر بفزان والصحراء وتنتهي عند غامبيا.

(1) نفس المصدر السابق ص 8.

وبالرغم من أن رحلة (وليم لوكاس) لم تسفر ـ على ما يبدو ـ على نتائج ذات قيمة فإن الجمعية قد دفعت بمستكشف آخر هو فريدريك هورنمان، إلى داخل أفريقيا، إنطلاقاً من القاهرة ومروراً بمرزق إلى كل من بورنو والنيجر.

(ولد فريدريك هورنمان) في (هلدشيم) سنة 1772 ودرس في غوتنغا العلوم الطبيعية تحت إشراف العالم الشهير (بلومنباخ)[1] وقد كان طموحاً شغوفاً بالتحصيل واكتساب المعارف (فلم يكتف بالتأهيل الذي حصل عليه في ميدان العلوم الطبيعية فسعى إلى تكميله بتوسيع معرفته في العلوم الفلكية واللغوية)[2].

وفي عام 1796 سمع هورنمان باعتزام الجمعية الإنجليزية بإرسال مبعوثين عنها إلى داخل أفريقيا للقيام بعملية مسح جغرافي يستطلع أحوال أجزاء واسعة من مناطق فزان ـ بورنو ـ والنيجر ـ وقد أعجب هذا الإلماني الشاب بمثل هذه

(1) نفس المصدر السابق ص 10.
(2) نفس المصدر السابق ص 10.

المغامرة العلمية ، فسارع من فوره بعرض خدماته على الجمعية المذكورة للقيام بمشروعها في داخل أفريقيا مدعوماً من قبل أستاذه (بلومنباخ) الذي (أوصى به الجمعية التي لم تتردد في اختياره مبعوثاً لها)[1] فاختارته من بين الكثيرين من الذين تقدموا إليها عارضين خدماتهم.

وقد تزود هورنمان ـ أثناء إقامته بلندن بالعلوم اللازمة ليقوم بمهمته على الوجه المطلوب، ومن جملة تلك العلوم التي كان عليه أن يتعلمها ويحيط بها إحاطة جيدة هي دراسة اللغة العربية، كما كان عليه أن يلم ببعض ما كان يتوفر من معلومات عن المناطق الواقعة ضمن برنامج رحلته، ولا بد وأنه قد تزود ـ أيضاً ـ ببعض الدروس المتعلقة بتعاليم الدين الإسلامي، وعباداته إذ المعروف أن رحالتنا هذا كان عليه أن يتجول متخفياً في شخصية حاج تركي!

وبعد أن انتهت الجمعية من وضع اللمسات الأخيرة على الرحلة وأقرتها رسمياً في برنامجها أذنت ببدئها وكان

(1) نفس المصدر السابق ص 10.

ذلك في صيف عام 1797 حيث غادر هورنمان لندن متجهاً إلى باريس حيث (هيأت له رسائل التوصية التي زود بها، وشهرة الجمعية التي أوفدته والغايات السامية التي كانت تقوده ـ استقبالات كبيرة في العاصمة الفرنسية)[1] وتشاء الصدفة أن يقابل أثناء مروره العابر بباريس بأحد الأتراك التجار المقيمين في طرابلس وحصل منه على (أهم التوصيات التي حصل عليها وأكثرها جدوى) إلى عدد كبير من التجار المسلمين ممن كانت لهم علاقة وصلات واسعة بنواح عديدة من الصحراء الليبية وما وراءها، وقد ساعدته هذه التوصيات المكتوبة على بلوغ غايته من هذه الرحلة، وتيسير تحركاته، وتنقلاته بأكثر تلقائية وسهولة.

وبعد إقامة قصيرة في العاصمة الفرنسية توجه هورنمان إلى مرسيليا حيث استطاع أن يصل عن طريق (ليفورنو) إلى ميناء الإسكندرية، وفي 5 سبتمبر 1797كان قد لبعض الوقت في القاهرة مصحوباً من أعوانه واسمه فريدنبرغ.

(1) نفس المصدر السابق ص 10.

(وفي العاصمة المصرية اضطر رحالتنا بسبب أحداث مختلفة إلى أن يمدد إقامته أكثر من المدة المقررة، ولكنه استطاع أن يستفيد من هذا الزمن في توسيع معارفه اللغوية، واستعداداته، وقد سنحت له الفرصة لإقامة علاقة مع بعض التجار العرب المتجهين إلى فزان وحصل على موافقتهم بالإنضمام إلى قافلتهم.

إلا أن غزو الفرنسيين لمصر، وما أعقبه من إضطرابات، قد دعاه إلى تأجيل تنفيذ مشروعه) [1] ومهما يكن من أمر فإن هورنمان وصاحبه خريدنبرغ قد تمكنا من الانضمام إلى القافلة الفزانية متنكرين في زيهما العربي التقليدي في محاولة لإخفاء هويتهما الحقيقية، وعلى الرغم من حرصهما الشديد في التكتم على هويتيهما إلا أن عرب الصحراء كانوا من الذكاء بحيث كانوا في بعض الأحيان على وشك أن يكشفوا عن سرهما ولكن هورنمان ومرافقه - كانا من شدة الحرص، وقوة الإنتباه بحيث استطاعا دائماً أن يفوتا على المتربصين بهما الفرصة، وأن يوفرا لنفسيهما

---

(1) نفس المصدر السابق ص 11.

قدراً من الإطمئنان الذي يساعدانها على القيام بمهمتها على الوجه المطلوب.

وفي بلدة (كرداسا) بضواحي القاهرة كانت بداية رحلة هورنمان حيث كان عليه أن يندفع مع قافلته شاقاً طريقه وسط الصحراء الليبية وعبر أراضٍ موحشة جرداء مقفرة إلا من بعض الواحات المبعثرة هنا وهناك في فيافي هذه الصحراء المترامية الأطراف، وهذه الواحات - على قلتها - كانت تبدو وسط الرمال الصفراء شيئاً له قيمته، وقدره واعتباره ولولاها لما احتمل المسافر على طرقها مشقة المسافات المضنية ، (ومن سيوة بلغ أوجلة الواقعة جنوبي برقة ومن هناك اتخذ طريقه مباشرة نحو الجنوب الغربي)[1] وكان عليه بعدئذ أن يمر في طريقه إلى فزان بأوجلة، وزويلة، وحميرة، وتراغن، وسيدي بشير، ومن ثم إلى مرزق التي ختم بهابرنامج رحلته الأولى، وكان وصوله إليها في سبتمبر 1798 أي بعد نحو من تسعة أشهر من بدء رحلته، وقد كان مجموع ما قطع في رحلته - القاهرة -

(1) نفس المصدر السابق ص 11.

مرزق ما يزيد على 833 ميلاً شق فيها الصحراء الليبية في وسطها إلى نصفين تقريباً، وكانت رحلته بين القاهرة ومرزق قد أتاحت له فرصة ذهبية جمع فيها من المعلومات قدراً كبيراً ساهم بها هذا الرحالة في رفع الكثير من الغموض حول هذه المنطقة التي كانت حتى هذا الوقت غير معروفة تماماً لدى الدوائر العلمية والجغرافية في أوروبا، وكانت (مرزق) مادة بكر في اكتشافات رحالتنا إذ لم يستطع احد من قبله أن ينقل عنها إنطباعات مباشرة.

صحيح أن الكثير من تلك المعلومات التي جمعها هورنمان في رحلته هذه قد أصبحت الآن قديمة، وذات قيمة محدودة بعد أن توالت عليها الكثير من الرحلات التي تميزت بمنجزاتها الباهرة، واكتشافاتها العظيمة في هذه الأصقاع، إلا أن رحلة (هورنمان) هذه تتميز بأهمية خاصة باعتبارها فاتحة باب لرحلات أخرى توالت بعدها بقليل - ثم أنها كانت من ناحية موضوعية قد تضمنت (وقائع وملاحظات جديدة تماماً وذات أهمية خاصة، وتتصل بوجه خاص بذلك الجزء من الرحلة الذي تم عبر الأراضي الليبية أي في واحات أوجلة، تمسة، زويلة، ومرزق

والأحوال العامة لفزان وسكانها مصادر ثروتها)[1].

هذا بالإضافة إلى الملاحظات العديدة التي اشتملت على دراسة أنثروبولوجية عني فيها هذا الرحالة بمسح كبير لقبائل (التبو) و(الطوارق) في تلك الواحات وكذلك البلاد المجاورة للحاجز الصحراوي الجنوبي الواقع شرقي (تمبكتو) والمتاخم لتشاد والسودان فأورد في ثناياها الكثير من الحقائق المتعلقة بالتقاليد، والعادات، السائدة بين سكان تلك الأصقاع الصحراوية، ويعتبر بعض ما أورده في هذا الباب من أكثر الأمور مدعاة للاهتمام للدوائر العلمية والجغرافية والسلالية في عصره.

وقد جمعت تلك التقارير التي كان (هورنمان) قد أرسل بها تباعاً من طرابلس إبان إقامته فيها لبعض الوقت، إلى الجمعية الإنجليزية، وعملت الأخيرة على ترجمتها إلى الإنجليزية عن أصلها الإلماني الذي كتبت به (وضمته محاضرها ثم جمعته ضمن وثائق أخرى وكتابات إضافية، في مجلد نشر بلندن في عام 1802)[1].

---

(1) نفس المصدر ص 12.

الطبيب جوناثان كودري
(1803 - 1805)

السنوات التي أتيح لآل القره مانلي أن يحكموا فيها نيابة طرابلس الغرب (1711 - 1835) كانت من أخصب السنوات ازدحاماً بالأحداث الجسام ـ ففضلاً عن الصراعات الداخلية، والانتفاضات العديدة في شرقي البلاد وجنوبها، هناك في مقابل ذلك القوة البحرية التي أخذت تتنامى في هذا العهد حتى بلغت أوجها في فترة حكم يوسف باشا (1797 - 1832) ومع تنامي هذه القوة زاد الاحتكاك المباشر مع دول أوروبا في مياه البحر الأبيض المتوسط، وأدى ذلك الاحتكاك إلى وقوع الكثير من

الأحداث فيما يسمى بحروب القرصنة، وبالرغم من تأثير تلك الأحداث في النشاط التجاري وما يأتي في إثر ذلك من ردود أفعال جانبية ـ سلباً وإيجاباً ـ في سيرورة السياسات، والأنشطة الدبلوماسية وبالتالي العلاقات الخاصة بالدول المطلة على البحر الأبيض المتوسط، ـ بالرغم من ذلك فإن الأحداث التي دوّنتها أقلام المؤرخين عن هذه المرحلة كانت قليلة بالقياس إلى حجمها الحقيقي. بل هي تكاد تكون غير مدونة أصلاً في لغتنا العربية، وما جاءنا منها لا يزال محصوراً فيما كتبه الأجانب ـ سواء كانوا رحالة زائرين، أو قناصل مقيمين في بلادنا!؟.

ويحفظ لنا التاريخ فيما يحتفظ من كتابات ذات قيمة خاصة عن العهد القره مالي ما كتبته ريتشارد تولي في رسائلها التي غطت ما قدره 10 سنوات من هذا العهد، وبالضبط في الأعوام الواقعة بين 1785 - 1795، وما أوردته في رسائلها العديدة يعد سجلاً طريفاً، وحياً للأحداث التي مرت بها نيابة طرابلس الغرب ضم فيها فيما ضمّ الكثير من الملاحظات الذكية النابهة التي تعد (سجلاً رائعا

لكل الحوادث، والمحن والأوبئة وتصويراً شائقاً للعادات والتقاليد والملابس وغيرها)[1].

وينتظم الطبيب جوناثان كودري (1803 - 1805) إلى قائمة الأجانب الذين أتيح لهم أن يدونوا ملاحظاتهم عن فترة غطت ما يزيد عن العامين من حكم يوسف باشا القره مالي (1803 - 1805) وهي الفترة التي ترددت فيها العلاقة بين نيابة طرابلس الغرب والولايات المتحدة الأمريكية، وأسفرت في نهاية المطاف عن العديد من المواجهات المسلحة في البر والبحر، دامت لأكثر من أربعة أعوام متصلة.

(ولد الدكتور جوناثان كودري، في مدينة ساند يسفلد في مقاطعة يوركشاير بولاية ماشاتسوست في شهر يناير 1767، وكان أبوه جابز كودري أيضاً طبيباً يعمل في هذه المدينة، وينحدر من نسل بعض المهاجرين الانجليز في القرن السابع عشر)[2].

(1) مقدمة (يوميات الطبيب كودري) ص 13 بقلم عبد الكريم أبو شويرب.

(2) نفس المصدر السابق ص 19.

وقد عمل كمساعد طبيب في البحرية الأمريكية وظل في عمله هذا إلى أن وقع في الأسر هو وحوالي ثلاثمائة بحار أمريكي - في مكان غير بعيد من شواطىء مدينة طرابلس وذلك في 13 سبتمبر 1803 بعدْ أن تمكن البحارة الليبيين من أسر سفينتهم الحربية الضاربة فيلادلفيا!؟.

وبالرغم مما كان على البحارة أن يواجهوا من قسوة الأسر، وشظف العيش في سجون آل القره مانلي إلاّ أن كودري هذا من ناحية فعلية كان شبه حر وذلك لاعتبارات أملتها طبيعة عمله كطبيب. فكان يسمح له بالخروج من معتقله ليقوم برحلات قصيرة في المدينة أو في ضواحيها أو عندما يلبي طلب (الباشا) لإعادته أو إعادة أسرته أو المتنفذين من رجال حكومته، وقد منحه هذا بعض الحرية في الحركة، فكان يستطيع أن يطلع على الكثير من مجريات الأمور داخل القلعة (مقر الحكومة القره مانللية) كما وفرت له اتصالات مباشرة بشخصيات مهمة ففضلاً عن التقائه (بالباشا)، وولي عهده، كان يلتقي بصورة دورية برجال آخرين من ذوي المكانة الرفيعة، وتحدث إليهم، وتحاور

معهم وكتب عنهم بعض ما تركته لقاءاته بهم من انطباع له خصوصيته التاريخية.

عمد الطبيب كودري إلى تسجيل خواطره، وملاحظاته، يوماً بيوم تقريباً، بدأها في 31 أكتوبر 1803 (أي بعد شهر واحد من وقوعه في الأسر) وقد داوم على ذلك بشكل منتظم إلى حد ما إلى 6 يونيو 1805 ولفترة دامت 19 شهراً كاملة.

وعلى الرغم من أن التزام كاتب هذه اليوميات بتسجيل التطورات الخاصة بأحوال زملائه من الأسرى، وما كانوا يلقونه من ذل العبودية التي جرتهم إليها بلادهم - إلى جانب ذلك كان يولي عناية خاصة بتطور حالة المواجهة المسلحة في طرابلس الغرب وما كان يتخللها من عمليات القصف المدفعي على المدينة، وما كان يسود الجو العام من توتر نتيجة لطول أمد هذه الحرب التي دفعت بالكثيرين من السكان في طرابلس الغرب لأن يرحلوا عنها طلباً لملجأ أكثر أمناً، كما غطت هذه اليوميات الحصار البحري المضروب على نيابة طرابلس الغرب، وما ترتب عنه من

قطع الكثير من المواد والسلع التموينية التي كانت ترد عليها عن طريق الوسائل البحرية!

إن الطبيب كودري لا يضيع أية فرصة في اقتناص الأخبار المتعلقة بأمور الحرب، ومساعي السلم، ولا يترك سانحة تفوت دون أن يستغلها في تسجيل ما يرى، وما يسمع، وكان لبعض هذه المعلومات التي ساقها إلينا في يومياته أهميتها الخاصة، لكونها ترتبط لفترة غير عادية كانت البلاد فيها تخوض غمار حرب حقيقية مع دولة بحرية كبيرة هي الولايات المتحدة الأمريكية ـ فسجل ما كان يدور على ساحة القتال وما كان يدور على ساحة المساعي الدبلوماسية لإيقاف نزيف الحرب، فيقف بنا على الخسائر في الأرواح، والمعدات بين الجانبين كما يقف بنا على ما يدور في الكواليس من جدال يتناول الحرب برمتها!؟

ويسجل فيما يسجل الحالة التي كانت عليها الروح المعنوية عند الباشا وحاشيته والأهلين تجاه هذه الحرب، وما يتواتر عنها في ردود الأفعال في صفوف المقاتلين الليبيين وعلى الرغم من أن مدونات كودري لا تقدم لنا هذه المعلومات إلا في هيئتها المقتضبة والمبتسرة (إذ تهمل هذه

اليوميات ذكر الأسماء، ولا تعطي في هذا الصدد إلا القليل من التفاصيل، والإيضاحات) إلا أن ما سجلته لنا كان بحد ذاته يحمل دلالات مفيدة يمكن أن تتخذ سنداً تاريخياً يدخل في بنية الفكرة العامة في تطور ظروف تلك الحرب.

إن كودري هذا لم ينس أن يسجل في يومياته أمورا وقف عليها بنفسه مثل انتشار الشعوذة، وقوة سلطانها وتأثيرها على العقول كما سجل إلى جانب ذلك ما رآه بنفسه في مستشفى الحكومة من وسائل العلاج والتطبيب، وكذلك أحداث فردية وأخرى هامشية.

والجدير بالذكر أن يوميات (جوناثان كودري) قد ظهرت أول مرة ضمن كتاب طبع في أمريكا عام 1806 تحت عنوان (الأسرى الأمريكيون في طرابلس)، وقد نقلها إلى العربية وقدم لها وهمش الدكتور عبد الكريم أبو شويرب ونشرها مركز جهاد الليبيين في سلسلته المذكرات التاريخية 1982.

[illegible]

[illegible] من الولايات المتحدة الأمريكية [illegible]

[illegible]

المصرية عند الباشا وحاشيته والأهالي تجاه هذه الحرب [illegible]
يتوارى عنها في ردود الأفعال في صفوف القاتلين الذين [illegible]
وعلى الرغم من أن مذكرات كوزي لا تقدم لنا [illegible]
المعلومات إلا في حيثيتها الضيقة والمثيرة (إذ تهمل [illegible]

(ملفانتي) هذا إلى صديق من مواطني مدينة (جنوا) بإيطاليا وذلك خلال عام 1447م.

ولا نريد هنا أن ننقص في سيرة أولئك الرجال الذين جاؤوا من إيطاليا يحدوهم الأمل في أن يحوزوا قصب السبق في اكتشاف أرض جديدة لم يبلغها إنسان من قبل، فهؤلاء الرجال كثر ولسنا هنا بصدد حصرهم وتتبع أخبارهم!؟

ففي الإطار العام لتلك المساهمات التي قام بها مكتشفون رحالة من إيطاليا يطالعنا بوضوح اسم الدكتور (باولو دلا شيلا) كواحد من الذين عنوا بدراسة المظاهر الجغرافية والطبيعية والنباتية للمناطق الساحلية من الأراضي الليبية، وبالخصوص ذلك الجزء الممتد بين خليج سرت والحدود الليبية المصرية أو فيما يسمى وقت قيام الرحلة بأراضي برقة أو قريباً منها!

(كان الدكتور باولو دلا شيلا قد تخرج في الطب من جامعة (جنوا) حين أحس بالرغبة تدفعه إلى زيارة بلدان جديدة، وجمع معلومات عن التاريخ الطبيعي)[1].

(1) الكشف الجغرافي في ليبيا ص 14.

وفي عام 1816 [1] عبر (دلا شيلا) البحر ميمماً وجهه شطر مدينة طرابلس (وحل ضيفاً على قريبه السينيور بارتولوميو بوكاردي القنصل العام لسردينيا بطرابلس)[1] وقد وافق وصوله في الوقت الذي أوشكت فيه الحملة العسكرية التي أعدها يوسف باشا القره مانلي لقمع ثورة تزعمها ولده (محمد بك) ببرقة والتي كانت تلقى مساندة كبيرة من قبل بعض القبائل الكبيرة هناك. ومهما يكن من أمر تلك الحملة وأسبابها فقد طلب الباشا من الدكتور دلا شيلا أن يصحب أحمد بك ـ قائد الحملة ـ وأن يقوم بمهمة الطبيب الخاص به.

واضح أن دلا شيلا لم يتردد لحظة واحدة في قبول عرض الباشا هذا والقاضي بإدخاله كطبيب في خدمة نجله ـ أحمد بك ـ أثناء المدة المتصلة بهذه الحملة، وهكذا فقد انضم من فوره إليها متخذاً من وجوده بين أرتالها المندفعة نحو هدفها المحدد غطاءً يوفر له الأمن والحماية وقدراً كبيراً من حرية الحركة أثناء رحيلها نحو الشرق حيث سلكت

(1) نفس المصدر السابق ص 14.

هذه الحملة في ذهابها طريق لبدة، مصراته وادي بي، والزعفران (بسرت) والابيار والجبل الأخضر وقورينا، وقد أتيح له اثناء ذلك أن يتفحص كل شيء من حوله بعين العالم الذكي، وبصيرة المتفهم الواعي، وكان يدون ملاحظاته في صيغ من الرسائل كان يوجهها أولاً بأول إلى استاذه البروفسور دومينكو فقياني، استاذ علم النبات بجامعة (جنوا) الإيطالية وكان الأخير ـ على ما يبدو ـ يشاطره الاهتمام بحياة النبات وما يتصل بها في السواحل الليبية أو هكذا ما تنبئنا به هذه الرسائل ـ على الأقل .

وعلى الرغم من أن (النتائج الجغرافية للرحلة كانت محدودة جداً بالنظر إلى أن الطبيب الرحالة لم يكن يملك الاستعداد ، ولا الوسائل، ولا الإمكانيات الضرورية التي تمكنه من القيام بدراسة فلكية، أو مسح طوبوغرافي، ولكن ذلك لا ينفي أن التقرير عن الرحلة وتسجيله لمشاهداته، وملاحظاته الذكية الدقيقة حول البلاد التي مر بها وسكانها تشكل كلها كسباً حقيقياً لتعميق المعرفة بليبيا والإحاطة بأوضاعها)[1] .

(1) نفس المصدر السابق ص 15—16.

وإذا عدنا إلى تلك الرسائل التي كتبها هذا الطبيب الرحالة نقرأها سوياً فإننا حتماً سنلاحظ أن النهج الذي احتذاه في كتابتها لا يكشف عن اهتمام بعلم محدد، أو فن معين بل هي في مضمونها العام مجرد انطباعات شخصية لها ضلع في العديد من الأمور ، بعضها جليل القدر وبعضها الآخر هامشي وربما مسف!؟

ومهما يكن فإن الملاحظات التي دونها دلا شيلا في رسائله، والمتصلة اتصالاً وثيقاً برحلته في ليبيا قد صادفت اهتماماً خاصاً من الدوائر العلمية في أوروبا التي عنيت بترجمتها ونشرها في أكثر من لغة نذكر منها على سبيل المثال ـ اللغة الفرنسية والإنجليزية والإلمانية، ولم يكد يمر على صدورها في لغتها الإيطالية سوى وقت قصير.

من الجدير بالإشارة هنا أن الدكتور الهادي بولقمة قد تمكن أخيراً من ترجمتها إلى اللغة العربية، وقامت مكتبة الفكر بطرابلس ـ ليبيا بنشرها وقد اعتمدنا فيما جاء في هذا الفصل من الكتاب على هذه الترجمة.

القبطان جورج فرانسيس ليون
(1818 — 1819)

في خريف عام 1818 قدم إلى مالطا الدكتور جوزيف ريتشي وبين يديه خطة عهدت بها إليه الحكومة البريطانية للقيام بعدة استطلاعات استكشافية في داخل أفريقيا وذلك ضمن برنامجها الخاص لاستكمال الكشوفات التي بدأها (لوكاس) و(هورنمان) في تلك الأراضي من أفريقيا، (وقررت أن تخصص لمرافقته ضابطاً من البحرية الملكية البريطانية وكانت النية قد اتجهت إلى اختيار القبطان ماريات) إلا أن الصدفة شاءت أن يلتقي ريتشي د.ج. ف. ليون من الفرقة البحرية العاملة بالبحر الأبيض المتوسط ـ أثناء مروره بجزيرة مالطا وهناك تم التعارف بين

الرجلين، ولم يكن قط يجول بخاطر أي منهما أن يربط هذا اللقاء العابر بينهما في عمل كشفي داخل أفريقيا.

وفي لقاءات تمت بين الرجلين حدث الدكتور جوزيف ريتشي القبطان (ليون) بما يزمع القيام به من كشوفات يقتفي فيها أثر تلك المحاولات الناجحة التي قام بها سلفه هورنمان في داخل أفريقيا ويبدو أن الفكرة قد راقت للقبطان ليون، ومن ثم سعى الرجلان إلى مخاطبة الحكومة البريطانية في شأن انضمامه إلى البعثة، وبينما كان ليون ينتظر ـ أثناء إقامته في مالطا ـ ما توافيه به الحكومة البريطانية في هذا الخصوص عكف على تلقي بعض المبادىء في اللغة العربية، في الوقت الذي واصلت فيه البعثة رحلتها إلى طرابلس بكامل أعضائها الثلاثة وهم ريتشي ودي بونت وبلفورد وفي نيتهم كسب الوقت، لتهيئة الظروف المناسبة لبدء مهمتهم الاستكشافية في جنوب الصحراء.

وفي التاسع من شهر نوفمبر 1818 استلم القبطان ليون خطاباً من الحكومة البريطانية تأذن له فيه رسمياً بالإلتحاق في عضوية البعثة لفائدة المشروع العلمي المزمع القيام به.

وفي الحال ترك موقفه في الفرقة البحرية العاملة في البحر الأبيض المتوسط ميمماً وجهه شطر طرابلس التي وصلها بعد أيام قليلة حيث تسنى له أن يباشر رسمياً مهمته كعضو رابع في هذه البعثة التي لم يمهلها الوقت طويلاً فانفجر النزاع فيما بين أعضائها وكان من نتائج هذا النزاع أن قرر دي بونت ـ وكان مناطاً به إعداد الدراسات التي تتصل بالتاريخ الطبيعي لحساب البعثة ـ الإنسحاب من عضوية هذه البعثة والعودة من حيث أتى كما فعل زميله الأخر ماريات نفس الشيء فقطع على نفسه خط الرجعة وتنصل من اشتراكه في هذه البعثة منذ البداية وإذا كانت يوميات ليون لا تذكر تفاصيل هذا النزاع، وأسباب تفاقمه بين أفراد هذه البعثة إلا أن للمرء أن يستشف خلف سطورها، وفي محتوى سياقها العام في جزء من أجزائها أن الدكتور جوزيف ريتشي ـ رئيس هذه البعثة ـ كان كما تصوره هذه اليوميات شخصية صلبة المراس، حادة المزاج، عنيدة لا تقاوم في عنادها، ولا تقبل المفاوضة بمرونة ولين عريكة، وقد كانت هذه الصفات ـ على ما يبدو مبعث نفور من زملائه في البعثة، وتفرقهم عنه ولم تكد البعثة تقطع خطوة

واحدة في مشوارها الطويل!؟

وبالرغم مما حدث فإن مخططات هذه البعثة قد مضت قدماً في اتجاه التنفيذ حيث عمل (ريتشي) و(ليون) على تكثيف اتصالاتهما بالسلطات القائمة في طرابلس وعلى رأسها (الباشا) (الذي سبق وأن أبدى إستعداده لمساعدة البعثات التي تنوي اكتشاف الدواخل التابعة لولايته)[1] كما وجد الرجلان في القنصل الإنجليزي وارنجتون ـ خير عون لهما على تذليل مصاعبهما كلما وجد إلى ذلك سبيلاً، وقد حصل لهما من الباشا على الإذن بالإنضمام إلى القافلة التي تقل محمد المكني ـ بك فزان ـ وكان الأخير على دراية واسعة بالمناطق الصحراوية حيث (قام بعدة رحلات إلى الدواخل للمتاجرة بالرقيق ولذا كانت مساعداته ذات نفع واضح للرحالين اللذين وعدهما بكل عون ممكن)[1].

وفي خلال إقامة هذه البعثة في طرابلس ـ إنتظاراً لسفر المكني ـ وإنشغالاً بوضع بعض الترتيبات اللازمة في صميم رحلتهما، اغتنم الرجلان الفرصة، وقاما بعدة استطلاعات

(1) نفس المصدر السابق ص 19.

تضمنت (جولات أولية متوغلين في منطقتي غريان، وبني وليد)[2] وقد ورد تفصيل ذلك في يوميات ليون.

وهكذا فلم (يتمكنا من الشروع في رحلتهما والإنضمام إلى القافلة الفزانية إلا في 7 فبراير 1819وما هي إلا أيام حتى كانت البعثة تجد في طريقها مندفعة في اتجاه الجنوب سالكة طريق غريان، بني وليد أبي نجيم حيث وصلا سوكنة في 11 أبريل 1819 وفي 30 منه بلغا سبها وفي 4 مايو كانا بمرزق)[1].

غير أن سوء الحظ الذي صادفته هذه البعثة في بداية أمرها لايزال لها بالمرصاد، فما إن وصلت إلى (مرزق) وإستقر بها المقام في حماية محمد المكني حتى بدأت تتوالى عليها المتاعب، أولاها بالإعتبار أن ساءت صحة الدكتور ريتشي إلى الحد الذي تعذر معه على أن يقوم بأية انجازات ذات بال، ونراه يقضي أكثر أيامه التي كتب له أن يعيشها بمرزق في مرض متصل لا يكاد يبرأ منه حتى يعاوده من جديد!؟

(1) نفس المصدر السابق ص 19.

ولكن أسوأ ما لاقته هذه البعثة على الإطلاق هو وقوعها في ضائقة مالية، الأمر الذي لجأت معه إلى الاستدانة حيناً، وبيع ما كان معها من أمتعة حيناً آخر، وذلك من أجل سد نفقاتها اليومية العاجلة.

ويبدو أن محمد المكني لم يكترث كثيراً للحال السيء الذي وصلت إليه هذه البعثة (أو هكذا ما حدثتنا به يوميات القبطان ليون) فتركها ضحية لقدرها البائس!

وبالرغم من أن الظروف قد أصبحت غير مشجعة تماماً لاستمرار هذه البعثة في القيام بمهمتها من بعض هذه الوجوه، إلا أن القبطان ليون الذي ظل في أكثر الأوقات متمتعاً بحيويته الصحية - وإن لم يكن بمنجاة من الحمى التي كانت تداهمه بين الحين والآخر - قد وجد في وقته متسعاً لتدوين الكثير من الملاحظات التي كونها لنفسه عن الحياة الاجتماعية في (مرزق) بعاداتها وتقاليدها ومظاهرها الشعبية وهو نفس ما فعله بالناس الذين التقاهم بالجبل الغربي عند إقامته القصيرة في طرابلس، غير أن أكثر ما يؤخذ عليه في تلك الملاحظات التي دونها في سياق يومياته هو تهافتها على الإحتفاء بالمظاهر الاجتماعية التي كان يرى

ولكن أسوأ ما لاقته هذه البعثة على الإطلاق هو وقوعها في ضائقة مالية، الأمر الذي لجأت معه إلى الاستدانة حيناً، وبيع ما كان معها من أمتعة حيناً آخر، وذلك من أجل سد نفقاتها اليومية العاجلة.

ويبدو أن محمد المكني لم يكترث كثيراً للحال السيء الذي وصلت إليه هذه البعثة (أو هكذا ما حدثتنا به يوميات القبطان ليون) فتركها ضحية لقدرها البائس!

وبالرغم من أن الظروف قد أصبحت غير مشجعة تماماً لاستمرار هذه البعثة في القيام بمهمتها من بعض هذه الوجوه، إلا أن القبطان ليون الذي ظل في أكثر الأوقات متمتعاً بحيويته الصحية ـ وإن لم يكن بمنجاة من الحمى التي كانت تداهمه بين الحين والآخر ـ قد وجد في وقته متسعاً لتدوين الكثير من الملاحظات التي كونها لنفسه عن الحياة الاجتماعية في (مرزق) بعاداتها وتقاليدها ومظاهرها الشعبية وهو نفس ما فعله بالناس الذين التقاهم بالجبل الغربي عند إقامته القصيرة في طرابلس، غير أن أكثر ما يؤخذ عليه في تلك الملاحظات التي دونها في سياق يومياته هو تهافتها على الإحتفاء بالمظاهر الاجتماعية التي كان يرى

فيها مخالفة صريحة لروح العادات والتقاليد الأوروبية وكأنه يريد بذلك أن يسترضي الخيال الأوروبي المريض والذي يلح عليه الفضول في الوقوف على المفارقات الغربية بين ما هو دارج لديهم وما دارج في الحياة الاجتماعية في البلاد الأفريقية.

ومن هنا فإننا نرى رحالتنا ليون يركز شطراً كبيراً من اهتماماته في جمع وتدوين ذلك الحشد الكبير من الصور الاجتماعية الغريبة - والمثيرة أحياناً - عن الحياة الاجتماعية التي يمارسها أهل الصحراء.

إنه فضول مفرط في الحساسية - لكنه على كل حال - فضول رجل يتميز ببصيرة ثاقبة!

وقد رأينا كيف انتهت حياة الدكتور جوزيف ريتشي الذي قضى نحبه في 20 نوفمبر 1819 متأثراً بما لحقه من متاعب وما تعرض له من حرمان وبات على القبطان ليون أن يواصل رحلاته بمفرده في الأراضي الواقعة جنوب مرزق بما توفر لديه من مال أرسلته له الحكومة البريطانية، واستطاع أن يجمع الكثير من (المعلومات حول واحة غات

والطرق التي تخترق منطقة التيبستي)[1] وكانت تعد في تقويم أصحاب الرأي - جديدة كل الجدة!

(وعلى الرغم من أن رحلة ريتشي وليون لم تحقق أهدافها بصفة تامة إلا أنها ساعدت على توسيع معارفنا حول إقليم فزان حتى أقصى الحدود الجنوبية الليبية، كما أن التحديدات الفلكية التي أنجزت بقصد ضبط الأوضاع الجغرافية في المناطق التي شملتها الرحلة قد ساعدت على وضع القواعد الأولى لرسم المنطقة بصفة أكثر دقة)[2].

وفي 9 فبراير 1819عاد القبطان جورج فرانسيس ليون إلى طرابلس سالكاً طريقاً آخر غير الطريق الذي سلكه أول مرة حيث مر في عودته بسوكنة، بني وليد، ولبدة ثم أخيراً طرابلس.

---

(1) نفس المصدر ص 20.

(2) نفس المصدر ص 20.

الميجر غوردون لاينج
(1825 — 1826)

يرتبط اسم المستكشف ألكسندر غوردون لاينج بتلك المغامرة العلمية الناجحة التي قام بها في ساحل العاج وكانت ذات طابع جغرافي (أظهرت صفاته ومواهبه كمكتشف)[1] والنجاح الذي حققه في ذلك الجزء من أفريقيا ـ هو الذي شجع وزارة المستعمرات البريطانية في أن تعهد إليه بالقيام بمهمة خاصة بأواسط أفريقيا حيث ينطلق هذه المرة من طرابلس آخذاً وجهته جنوب الصحراء الليبية إلى مجرى نهر النيجر عن طريق مدينة تمبكتو.

---

(1) إتيليو موري (الرحالة والكشف الجغرافي في ليبيا) ص 26.

(ولد ألكسندر غوردون لاينج في أدنبره 27 ديسمبر 1793، وكان مثقفاً وضابطاً من ضباط المستعمرات البريطانية، وبعد أن عمل في الهند الشرقية، عدة أعوام انتقل إلى مستعمرة سيرليون ثم ساحل العاج)[1] التي تركها لكي يتفرغ للقيام بالمهمات الجديدة التي كلفته بها وزارة المستعمرات البريطانية في داخل أفريقيا، وذلك حسب الخطة المرسومة وعلى نحو ما تقدم ذكره.

وفي ربيع عام 1825 كان رحالتنا غوردون لاينج قد وصل طرابلس، ومن ثم أخذ يعد العدة للقيام برحلته، وفي أثناء ذلك ارتبط بعلاقة ودية ووثيقة مع القنصل البريطاني فردريك وارنجتون الشهير بحماسه الشديد لدفع عجلة الكشف والرحالة في داخل أفريقيا، ويبدو أن رحالتنا قد أغرم بابنة القنصل (إمّا ماريا) ولم يمض وقت طويل حتى تزوجها وذلك قبل يومين من بدء رحلته المشؤومة!

واستطاع لاينج أن يحصل على كل الضمانات التي

(1) نفس المصدر السابق ص 26.

يعتقد أنها توفر له أسباب الأمن والنجاح من (باشا) طرابلس، فتزود منه بخطابات توصية إلى شيوخ المناطق الواقعة في برنامج رحلته وفوق ذلك عيّن له (محمد باباني) ليكون مرافقاً له أثناء جولاته الاستطلاعية في داخل الصحراء!؟

وكان محمد باباني هذا على دراسة واسعة بأحوال المنطقة الواقعة جنوب الصحراء، والأهم من ذلك كله كان موثوقاً به ثقة تامة من جانب القنصل الإنجليزي (وانجتون) ولعل الأخير قد لعب دوراً ما في الإيعاز به لدى الباشا ليكون مرافقاً لصهره الرحالة!؟

على أن الضمانات التي قدمها (يوسف باشا) إلى الميجر غوردون لاينج كانت لها فائدتها في تيسير مهماته طالما كان الأخير يتنقل داخل الأراضي الليبية، غير أن تلك الضمانات لم تكن بذات قيمة في ما عداها حيث لا يستطيع أحد أن يتكهن عما يمكن أن يحدث في أراض تعتبر من ناحية عملية خارج سيطرة السلطة في طرابلس.

بدأ غوردون لاينج رحلته سالكاً هو ورفيقه (وبعض

العبيد) طريق بني وليد ـ وادي الشاطىء ثم غدامس، ومن هناك يمم وجهه شطر هدفه المهم في هذه الرحلة (تومبكتو) التي بلغها في 18 اغسطس 1826.

ولا بد من الإشارة هنا لبعض المتاعب التي لقيها ورفيقه في (توات) إذ تعرضت قافلتهما إلى غارة من قبل طوارق (هجار)وكانت الغارة قد أسفرت عن سقوط بعض القتلى والجرحى في صفوفهم كما لاقى رفيقه (محمد باباني) مصرعه فيها أما (لاينج) الذي نجا بأعجوبة من الموت المحقق فقد أصيب بجرح بليغ تسبب في بتر يده اليمنى، وبالنظر لسوء حالته الصحية هذه، فقد فضل رحالتنا، البقاء لفترة عند مضيفه الشيخ مختار الختناوي، وما ان شفي تماماً من إصابته حتى استأنف رحلته جنوب الصحراء مصطحباً معه رسائل توصية من شيوخ (توات) إلى أعيان تومبكتو.

وفي (تومبكتو) استقبل رحالتنا غوردون لاينج استقبالاً حميماً يليق بمكانته كموفد موصى عليه من (الباشا) في طرابلس، على أن هذا الترحيب قد شابته نوازع من الحذر والحيطة والتوجس من أن سلطان قبائل (الفولا) قد أرسل يهدد الأهلين في تومبكتو إن هم استمروا في استضافة هذا

الرحالـة كما أعلنـوا بأنهم سيجـدون طريقـة ما لقتله والتخلص منه ومن ثم إتلاف آثار عمله الذي أنجزه حتى ذلك الوقت.

وبناءً عليه فقد خشي أهل (تومبكتو) أن ينفذ سلطان (الفولا) تهديداته بقتل لاينج وهو في جوارهم، وهذا من شأنه أن يوقعهم في إحراج شديد مع الموصين عليه سواء في طرابلس، أو في توات لذلك فقد أخذوا بأخف الاضرار فاجمعوا على أن يطلبوا من ضيفهم أن يواصل سفره إلى حيث يريد.

وهكذا فلم يجد رحالتنا من خيار آخر سوى الإذعان للرحيل، تاركاً (تومبكتو) على جناح السرعة ولم يكن قد تبقى من مرافقيه سوى أحد الأدلاء من الذين استأجرهم للطريق في طرابلس ولكن (الموت) لم يمهله طويلاً إذ وقع في كمين نصبه له رجال قبيلة (البرابيش) الذين امتدت يدهم - في نفس الوقت - إلى أمتعته وأدواته وأوراقه ، ووثائقه، واتلفوها جميعاً أو هكذا تقول بعض الروايات.

وقد بلغت أنباء مصرع غوردون لاينج إلى طرابلس، ونزل هذا نزول الصاعقة على رأس القنصل الإنجليزي

وارنجتون، فموت هذا الرحالة لم يكن خسارة، لمشروع علمي كانت وزارة المستعمرات البريطانية في لندن تعلق عليه شتى الآمال، بل هو كارثة عائلية في نفس الوقت.

ومن هنا فإن القنصل الإنجليزي قد أثارت حفيظته هذه الحادثة (حادثة مقتل صهره هذا) وأخذ يقوم بسلسلة من التحقيقات التي تتصل بظروف مقتله، وقد طلب من الباشا ـ الذي لا يبرئه من دم صهره المغتال بسبب ما اعتبره تقصيراً منه في تقديم كافة ما وعد به من الضمانات الكفيلة بحمايته أثناء تجواله في تلك المناطق ـ وكان أقل ما يمكن للقنصل أن يرضى به هو فتح ملف لقضية مقتل (لاينج) يتتبع الأشخاص الضالعين في مصرعه، بإرسال من يقف على عين المكان ليحققوا في الظروف العامة لارتكاب الجريمة مع طلبه الملح في عودة الوثائق والأوراق التي كانت في حوزته أثناء وقوع الجريمة.

وقد رد الباشا كتابياً[1] على التهم التي وجهها إليه

---

(1) يمكن الإطلاع على نصوص هذه المكاتبات في قضية مقتل (لاينج) في كتاب وثائق لإسماعيل كمالي، وتعريب محمد بازامة.

القنصل الإنجليزي وارنجتون في شأن مقتل الميجر غوردون لاينج وحاول بلباقة أن يفهمه بأنه غير مسؤول مسؤولية مباشرة عما وقع للمستكشف المنكود لأن مسرح الحادثة والظروف التي أحيطت بها قد وقعت كلها في أرض غير ليبية، وهي من البدهي غير خاضعة لسلطاته المباشرة وليقطع الشكوك التي راودت القنصل بالنسبة لهذه القضية، قدم له رسائل خطية وردت إليه من أتباعه في جنوب البلاد وكلها متفقة على رواية مقتله بالكيفية التي أوردنا ذكرها فيما سبق.

على أن حادثة مصرع غوردون لاينج قد تركت ذيولها في العلاقات بين وارنجتون والباشا في طرابلس فلم تصف من الأكدار التي خالطتها منذ وقوعها، ولعلها كانت لسبب أو لآخر مدعاة لأن يقف وارنجتون ذلك الموقف العدائي من حكومة الباشا إبان الثورة الأهلية في المنشية والساحل إذ عمل الأخير بصورة نشطة على دعم الثوار بكل ما أوتي من قوة حتى تمكنت هذه الثورة من إسقاط (الحكم القره مللي) وعودة الحكم العثماني إلى ليبيا حسب ما يفيدنا به التاريخ والمؤرخين.

لم يكن فيما ورد ذكره عن المستكشف الميجر غوردون لاينج إلا مجرد سيرة رحالة يوصف بالشجاعة دفعه حماسه للمغامرة العلمية إلى أن يشق طريقه في الصحراء الليبية وفي عزمه أن يبلغ منها إلى نهر النيجر، ولكن حظه العاثر وقف به عند مشارف (تومبكتو) حيث لقي هناك مصرعه على نحو ما ورد ذكره.

غير أن الملاحظات التي دونها رحالتنا قبيل وصوله إلى عين صالح كان لها اعتبارها العلمي إذ يرى فيها أتيليو موري ما تتميز به من أهمية خاصة ما يتعلق منها، بتحديده للموقع الجغرافي لغدامس، والملاحظات التي قام بها والمعلومات الوصفية عن المدينة وواحاتها، كانت الأولى من نوعها يقدمها رحالة حديث.

هاينريخ بارت
(1847 — 1845)

يقترن اسم الرحالة الإلماني هاينريخ بارت، في العادة بكونه إحدى الدعامات الكبرى في تأسيس الدراسات الأفريقية إذ كانت إنجازاته التي قام بها خلال سياحته في ليبيا، وبلاد السودان، وما كان لها من قيمة علمية عظيمة (سجل فيها الكثير من المعلومات الجغرافية والجيولوجية ، والإثنوجغرافية ، كما أتى بمعلومات تفيد تجارياً في علاقة أوروبا بهذا الجزء من العالم[1].

صحيح أن هناك رحالة ألمان وغير ألمان آخرين قد

(1) إكتشاف أفريقيا (دراسة مشتركة) ص 164.

حققوا إنجازات كبرى في حقل الإكتشافات الجغرافية في داخل أفريقيا، إلا أن (بارت) هذا يتميز على من سبقوه جميعاً بأنه كان (يجمع ما بين البحث النظري والعلمي على أحسن وجه)[1] الشيء الذي لم يتوافر إلا للقليلين من الذين ارتادوا مجالات الكشف والرحالة في داخل أفريقيا.

(ولد هانريخ بارت في همبورغ في 19 مايو سنة 1821، وبعد أن عكف بشغف قوي على الدراسات التاريخية والأثرية والجغرافية التي تلقاها عن أستاذه كارلو ريتر صمم على زيارة الأماكن التي كانت مسرحاً لإزدهار الحضارة الفنيقية القديمة، والقيام من أجل هذه الغاية برحلة تشمل كل الساحل الشمالي لأفريقيا، أو الساحل الأفريقي من البحر الأبيض المتوسط حتى سوريا)[2].

سافر بارت إلى لندن في شتاء عام 1845 من أجل التمهيد

---

(1) فيليكس فرانكة مقال بعنوان (أبحاث هانريخ بارت) مجلة فكر وفن العدد 16 - 1970 السنة الثامنة.

(2) إتيليو موري (الرحالة والكشف الجغرافي في ليبيا) ص 35 ترجمة خليفة التليسي.

للقيام بمغامرته العلمية الكبرى التي يزعم القيام بها في ساحل الشمال الأفريقي، فقام بدراسة ميدانية للآثار الموجودة بمتاحفها، كما تلقى دروساً منتظمة على يد أستاذ في علوم الاستشراق وفي أثناء ذلك يتعرف على أحد البارونات من أصحاب المكانة الاجتماعية البارزة، وكان على علاقة وثيقة (بفردرسن فيلهلم) ملك بروسيا وبالملكة (فكتوريا) ملكة بريطانيا وزوجها (ألبرت) وقد استغل بارت هذه الفرصة لدعم مشروعه العلمي الذي يزعم القيام به في أفريقيا الشمالية.

وقد استطاع رحالتنا (بارت) أن يحصل من صديقه البارون ـ ذي المكانة الاجتماعية البارزة ـ على مساعدات أدبية ومادية لصالح مشروعه العلمي ليس في داخل بريطانيا فحسب بل وفي خارجها.

وفي عام 1845 أخذ وجهته إلى شمال أفريقيا عبر إسبانيا بادئاً رحلته من الأراضي المغربية، حيث أخذ يتنقل بين المدن الساحلية التي اجتاز فيها الجزائر وتونس وطرابلس الغرب، ولا تعلم على وجه التحقيق المناطق التي شاهدها إثناء مروره بها ذلك أن مدوناته الخاصة بهذه الرحلة لا

تتضمن أية إشارات للجزء المتعلق منها بالأراضي الواقعة بين المغرب، وخليج سرت، ولعل ذلك يعود إلى ضياع أوراقه ونهبها من قبل بدو الحدود المصرية الذين سطوا على أمتعته ولم يستطع أن ينقذ منها إلا ما يتصل بعبوره لخليج سرت، وحتى الحدود الليبية المصرية.

وقد إعتاد بارت ـ أثناء الرحلة الطويلة المضنية أن يسجل كل مشاهداته وملاحظاته في كل ما يتعلق بالنواحي الجغرافية، والسلالية والأثرية محدداً الصور الهامة بواسطة جهاز كان معه)[1] وقد تمكن من إعداد تقريره عن رحلته في ساحل شمال أفريقيا مستعيناً بما بقي لديه من ملاحظات، ورسائل كان يبعث بها إلى أسرته في المانيا.

ويبدو أن ذلك النجاح الذي حققه بارت في هذه الرحلة قد لفتت إليه أنظار الدوائر العلمية في أوروبا، مما دعا الحكومة البريطانية أن تكلفه بالإشتراك مع كل من جيمس رتشاردسون وأودولف أوفيرويج وإدوار فوجيل (برحلة أوسع تنطلق من طرابلس نحو أفريقيا الوسطى وتؤدي إلى

(1) نفس المصدر السابق ص 36.

إنهاء تجارة الرقيق، وإقامة علاقات تجارية مع تلك الأقاليم)[1].

وكانت البلدان الموضوعة على رأس القائمة في هذه الرحلة هي: طرابلس، مرزق، وغات، وآبير وكوكا، وسيكوتو، والنيجر العليا، وتمبكتو.

وفي 18 يناير عام 1850 اكتمل وصول أعضاء البعثة الأربعة إلى طرابلس، (وقد اهتمت السلطات المحلية والجاليات الأجنبية باستقبالهم، وظفروا برعاية من قبل وارنجتون الإنجليزي المستعرب، وابن القنصل البريطاني العتيد [2] الذي ورث عن والده تلك السلطة والهيبة التي كانت له عند العرب وزعمائهم)[3].

وفي خلال مدة إقامة البعثة في طرابلس لوضع اللمسات التمهيدية الأخيرة على مشروعها استغل بارت وأوفيرويج هذه الفرصة وقاما بجولات استطلاعية في الجبل الغربي شملت مسحاً طوبوغرافياً، وطبيعياً، وأثرياً للبلدان التي

(1) نفس المصدر السابق ص 38.

(2) هو أوسمان وارنجتون.

(3) نفس المصدر السابق ص 39.

زاراها كجنزور والزاوية، ويفرن وغريان ومنطقة ترهونة ومسلاتة ولبدة وغيرها.

ويعد أن قامت هذه البعثة بجولات واسعة النطاق شملت صحراء الحماده ومرزق وغات وما بينها من الأراضي الليبية، إندفعت حديثاً في اتجاه السودان الغربي عن طريق غات وهناك لقي كل من ريتشاردسون، وأوفيرويج حتفهما كما لاقى إدوارد فوجيل نفس المصير فمات هو الآخر بعدهما بقليل بيد قتلة سلطان من السودان الأوسط.

وقد بقي (بارت) على قيد الحياة ليتكفل بإتمام بقية الرحلة حسب ما هو مقرر لها حيث وصل إلى كانو، ثم كوكا، ومن ثم استطاع أن يتوغل في رحلته جنوباً إلى بحيرة تشاد ثم نهر بنو ويولا باجرجي ثم قفل عائداً غرباً إلى تمبكتو.

والحقيقة فقد أصبح بارت بعد موت رفاقه الثلاثة في هذه البعثة الشخص الوحيد الذي ألقيت على كاهله تبعات هذه الرحلة بكل ما فيها من مسؤوليات ومخاطرات جسام على أن بارت كان كفؤاً لأداء كل المهمات التي كلف بها وفي

مقدمة ذلك إبرام الإتفاقيات والمعاهدات التجارية لحساب الحكومة البريطانية ـ فضلاً عن مهماته الإستطلاعية في أوسع رحلة قام بها أوروبي حتى ذلك الوقت فلأول مرة شملت رحلة في أفريقيا هذا النطاق الجغرافي الكبير الذي يمتد من طرابلس على ساحل البحر الأبيض المتوسط حتى أراضي النيجر العليا طوى خلالها ـ هذا الرحالة العنيد ـ مئات من الأميال ووقف فيها على شعوب وقبائل، وحكومات وسلطنات عدا ما تضطرب به هذه المناطق من تنوع في الأجناس واللغات والعادات والتقاليد!؟

وعندما عاد هانريخ بارت إلى موطنه في إلمانيا وجد في ذلك الزخم الذي تراكم لديه من مواد هذه الرحلة ما يعينه على كتابة تقرير ضاف ضمنه ثمرة تلك البعثة الخطيرة التي تعد من وجوه عديدة فتحاً جديداً في عالم الدراسات الأفريقية، فقد أصبحت الأبحاث التي خرج بها بارت على الناس مفخرة (لأدب الاكتشافات الجغرافية)[1] و(ذات قيمة لا تقدر بثمن. لأنها تعتمد على مصادر مخطوطة لم تنشر بعد، وكانت مجهولة في أوروبا تقريباً، وقد قام

(1) نفس المصدر السابق ص 42.

بارت بفحص النصوص ومقارنتها، وبالتدقيق في صحة معلومات الجغرافيين العرب، وبتقديم اقتراحات، وتعديلات وتصويبات كلما اعتقد بوجود تناقض أو اختلاف في المعلومات)[1]. ولذلك فإن منجزاته في هذا الحقل التي غطت خمسة مجلدات كاملة، والتي وصفت ببلوغها الأوج في الدقة العلمية لا تتأتى إلا لمن كان مثل رحالتنا بارت الذي لم يترك وسيلة متاحة إلاّ واستعان بها لفك الألغاز المحيرة التي واجهته عبر استطلاعاته العديد التي قام بها في منطقة واسعة من شمال إفريقيا، وفي داخلها، الأمر الذي دعا أحد الباحثين للقول:

(ليس هناك من فهم شعوب السودان الغربي وألمّ ببيئتها على نحو أفضل من (بارت) مما يجعل يومياته المنشورة ذات قيمة فريدة، بالنسبة للمؤرخ وعالم الآثار، والمشتغل بوصف السلالات البشرية وعاداتها وأخلاقها (الإثنوغرافي بالنسبة لعلماء الاجتماع والجغرافيا كذلك).

وعلى الرغم مما تنطوي عليه هذه المجلدات الخمسة من أبحاث تعطي جزءاً كبيراً من مشاهدات رحالتنا بارت في

(1) فيلكس فرانكة (أبحاث هاريخ بارت) مجلة فكر وفن ص 30.

منطقة واسعة من شمال ووسط ليبيا، تلك المشاهدات التي وصفت دائماً بالأهمية القصوى في العديد من الملاحظات التي كتب عنها رجال بحاثة ومؤرخون إلا أن جهود الترجمة إلى اللغة العربية لم تخصها بعد بأي شيء من الإهتمام ولعله سيمضي وقت طويل قبل أن يكون بإمكاننا أن نراها في لغتنا العربية!؟

الدكتور غوليم ناختيجال

(1869)

كان الدكتور (الطبيب غوليم ناختيجال) قبل حضوره إلى طرابلس للقيام بمهمة في داخل أفريقيا طبيباً بالجيش البروسي تحول للإقامة عند أحد أقربائه في تونس بحثاً عن الاستشفاء من مرض السل الذي أصابه في وقت مبكر من شبابه، وقد أتيح له أثناء إقامته بتونس أن يمارس مهنته كطبيب ففتح لنفسه عيادة طبية حققت سمعة طبية جعلت رئيس وزراء تونس واحداً من زبائنها!؟

وكانت علاقاته قد تدعمت بقصر الباي على ما يبدو فيختاره لمصاحبة الجيش التونسي المكلف بإخماد القلاقل بين القبائل وإقرار الأمن في بعض الأنحاء من الجنوب

التونسي، وفي خلال ذلك العام الذي قضاه غـوليـيم ناخيتيجال كطبيب متنقل مع الجيش التونسي، أحس هذا الأخير بما في الارتحال عبر الصحراء من ملذات الكشف ومفاجآت الرحالة، وإن لم يكن حتى ذلك الوقت يفكر جدياً في القيام بأي مغامرة له على ساحة الكشف الجغرافي لا في إفريقيا ولا في غيرها من البلاد، كذلك لم يكن - كما أشار أحد الباحثين - يعلم أنه من المقدر له أن يصبح واحداً من أكبر رواد ومكتشفي أفريقيا البحاث!؟.

ففي تونس التقى بواحد من الرحالة المعروفين برحلة تاريخية في البلدان الأفريقية واسمه جيرار رالف وأفضى هذا اللقاء عن اقتراح من الأخير إلى ناخيتيجال بالسفر معه إلى واحة الكفرة، وجالو وأوجله في شرقي ليبيا حيث لم يتأكد لأحد قبلهما من رؤية هذه الواحات والتي تتميز بأهمية خاصة.

غير أن رالف يتلقى في هذا الوقت تكليفاً من ملك بروسيا يأمره فيه بأن يقوم بالسفر فوراً كممثل له لدى السلطان عمر في كوكا ببرنو في أعالي نيجيريا غير أن رالف لم ترق له الفكرة، وهكذا لم يتحمس للسفر إلى تلك المهمة

التي كلفه بها ملك بروسيا، مفضلاً التمسك بمشروعه القاضي باستكشافه المزمع في الواحات الثلاث التي أشرنا إليها.

وقد وجد في رحالتنا غوليبيم ناختيجال ما يصلح لأن يقوم بدلاً عنه بهذه الرحلة فعرضها عليه فقبلها رحالتنا دون تردد أو إمهال، وكان على رحالتنا هذا أن يصاحب في رحلته الطويلة في أعماق الصحراء، وحتى نقطة إنتهائها في (بورنو) بنيجيريا (كرسياً للعرش، وعدداً من الصور في الحجم الطبيعي لملك بروسيا وملكتها وولي عهدها، وعدداً كبيراً من الجمال المحملة بالأسلحة، والذخائر، وساعات حائط، وساعات الجيب، والنظارات المكبـرة وأدوات الشاي وصناديقَ ضخمة مليئة بالمخمل والحرير، وطرابيش وكتب، وأدوية، وعقاقير، وآلة بيانو) وبقافلة قوامها سبعة جمال محملة بهدايا ملك بروسيا إلى سلطان بورنو، توجه ناختيجال شطر طرابلس، ومن ثم (سلكت قافلته الطريق المعهودة المطروقة عبر ترهونة وبني وليد حيث وصلت إليها يوم 23 فبراير 1869 ثم حلت بأبي نحيم في 2 مارس وسوكنة في 9 منه واجتازت جبل السودة عن طريق أم

العبيد (يوم 17 مارس وبلغت مرزق يوم 27 منه حيث توقفت هناك حتى بداية يونيو)[1] في انتظار أن يعثر على قوافل أخرى ذاهبة إلى بورنو. وفي أثناء ذلك أصيب رحالتنا بالملاريا، والدوسنتاريا كما صادفته الكثير من المضايقات من قبل جيوش الذباب التي أزعجته، وأقلقت راحته.

وعلى الرغم من أن رحالتنا هذا (لم يكن معداً إعداداً علمياً محدداً في بعض من فروع العلوم الرياضية والطبيعية، وذلك نقص يعترف هو بنفسه بتواضع أنه قد حط كثيراً من قيمة رحلته الطويلة المرهقة، ومع ذلك فإن ملاحظاته حول معالم البلدان، وطبيعتها وعادات السكان وتاريخ هذه البلدان تسبغ على تقريره عن الرحلة أهمية جغرافية حقيقية عظيمة)[2] وفي الأجزاء المتعلقة بطرابلس، وفزان، كتب غوليبم ناختيجال فصولاً وصفت بأنها ذات أهمية حقيقية واقعية ووصفية شاملة، ولعل أطرف ما كتبه

(1) إتيليو موري (الرحالة والكشف الجغرافي في ليبيا) ص 58 ترجمة خليفة التليسي.

(2) نفس المصدر السابق ص 58.

فصلاً مسلياً عن النساء في مرزق تناول فيه تقاليدهن وعاداتهن من ناحية مسلكية إجتماعية!؟

ومن الجدير بالإشارة هنا أن رحالتنا هذا قد التقى ـ أثناء مكوثه القصير في مرزق ـ بالرحالة ألكسندريا تينية التي سبق له أن التقاها في طرابلس، وكانت تينية هذه قد لعبت دوراً هاماً في تاريخ الحركات الإستكشافية في داخل أفريقيا، وكان فشلها وصدمتها في حب كبير قد دفعها للمغامرة والبحث والإغراق في حب الريادة والإستكشاف

وقد كان من المفروض أن تنضم إلى قافلة ناختيجال لولا أن الأخير وقف متردداً من ذلك[1] لأن هذه السيدة الهولندية كانت تصر دائماً على التنقل بكل أموالها وكنوزها مما يجعلها هدفاً قوياً لأعمال القرصنة في الصحراء.

وفي يوم 6 يونيو 1869 ترك غوليبم ناختيجال عاصمة الصحراء (مرزق) مواصلاً رحلته إلى الداخل وكان هدفه بورنو بكل ما كان معه من هدايا وتحف، وأدوات ثمينة!؟

(1) وكان محقاً في تردده هذا إذ لقيت مصرعها على يد رجال كان المفروض أن يكونوا في حراستها، وكان الطمع في كنوزها وأموالها على الأرجح ـ هو السبب الأقرب في قتلها.

المستكشف إدوارد راي
(1877)

قدم رحالتنا إدوارد راي إلى ولاية طرابلس الغرب عام 1877 (وكانت نقطة إنطلاقه من إنجلترا موطنه الأصلي) سالكاً طريقه عبر المدن الفرنسية أورنج - وآرل - ومرسيليا، ومن مينائها استقل باخرة أبحرت به إلى طرابلس عن طريق مالطا.

في مدينة طرابلس نزل رحالتنا ضيفاً على أحد الرعايا المالطيين ، حيث بدأ يعد العدة لعقد جولاته في المدينة، وأماكن أخرى من الساحل. قصد تتبع معالم الحضارة الإسلامية، بصورة رئيسية، ولكنه كان - إلى جانب ذلك - شديد الحرص على تدوين كل ما تقع عليه عينه من مظاهر حياتية عامة.

وقد تمكن راي من الحصول على مساعدات تكفل له التجول بحرية في المناطق والأماكن التي كانت موضوعة في برنامج رحلته، وبمساعي القنصل الإنجليزي أوسمان ورانجتون توفرت له كل ما يحتاج إليه في رحلته ، ولعل أهمها بالذكر دليل يرافقه في تجواله وخطاب توصية من لدن مصطفى باشا والي طرابلس الغرب جاء فيه:

إلى من يشمله سلطاننا نعلن أن المدعو راي من إنجلترا، والذي يحمل وثائق من عندنا، والذي قدمه إلينا قنصل إنجلترا المحترم الذي شملناه برعايتنا خلال سفره، وتجواله في الولاية نأمر بمساعدته، وتقديم العون له، وتسهيل أي رغبة في حَلّه وترْحَاله، وقد أنعمنا على هذا السيد برضانا ليذهب، ويعود سالماً.

وكان خطاب التوصية مؤرخاً في 11 صفر 1294هـ ويوافق هذا التاريخ ـ تاريخ بدء الرحلة ـ في شتاء (1877)من هذا العام.

وفي خلال الثلاثة الأيام الأولى من إقامته طاف إدوارد راي بأحياء مدينة طرابلس، وتجول في أسواقها، وشوارعها وأزقتها، ومتحدثاً إلى من يلقاهم من أهلها عرباً وتركاً

ويهوداً وأجانب سائلاً ومستفسراً عن أمور بدت وكأنها عويصة الفهم عليه، وقد يجره الفضول هذا إلى حد الإنغماس في تدوين ملاحظات جانبية عابرة، ولكن إدوارد راي يعرف بما له من قدرة على التحليل، وذكاء في تفكيك الأشياء، وتقليبها على وجوه مختلفة ـ يعرف كيف يعيدها إلينا، وقد اكتست طابعاً جديداً لما يضفيه عليها من بهاء النكهة ورونق الصنعة.

وقد اهتم رحالتنا بعمل مسح شامل للهيئة التي كانت عليها مدينة طرابلس، ولعل أهم ما أتى على ذكره بشيء من العناية والتفصيل، والتدقيق ما يتعلق بالمظاهر العمرانية، متتبعاً على وجه الخصوص، أصولها الإسلامية وكان يقوم بإعداد رسوم لما يراه منها جدير بالتسجيل من معالمها كالأسوار والحصون، والمساجد وما إلى ذلك. وقد انصبت ملاحظاته في جانب منها ـ على مساجد المدينة بعد أن حصل على فرصة كاملة لزيارتها وكان من نتائج ذلك أن ترك هذا الرحالة ملاحظات ذات قيمة علمية، وفنية وتاريخية حول بعض المساجد التي أتيح له أن يزورها.

وقد وسع إدوارد راي من نطاق رحلته، فشملت زيارة

ميدانية للمدينة الأثرية لبدة، ودوّن في ملاحظاته الأوضاع التي كانت عليه المدينة والتي يلتحف جزء كبير منها بآكام الرمال ويلتقط العديد من الصور للآثار الظاهرة منها ويسجل (راي) أسفه الشديد لما تلقاه المدنية من إهمال وسوء عناية من السلطات، وأشار إلى عمليات النهب التي تتعرض إليه آثارها بموافقة وعلم السلطات التركية، حيث تمتد الأيدي لإخراج كنوزها، ومن ثم المضاربة بها في الأسواق المحلية، الدولية.

وقد تمكن إدوارد راي من متابعة رحلته إلى تونس، عن طريق مالطا، حيث هدفه التالي مدينة القيروان، وعندما رجع إلى موطنه في إنجلترا نشر كتاباً أسماه (المغرب العربي) ضم وقائع مشاهداته في كل من طرابلس ولبدة والقيروان.

وقد أشار إدوارد راي في مقدمة كتابه إلى رحلته على أنها رحلة ذات ظروف خاصة، لم تواجهه فيها متاعب كالتي تعودناها في رحلات من سبقوه، وهوكذلك غير مرتاح للنتائج التي أسفرت عنها رحلته هذه خاصة في طرابلس ولبدة فهو لا يرى فيما كتبه عن المدينتين ما يشكل إضافة

كبيرة لما هو مكتوب عنها فعلاً وهو في مجمله يعد كمّاً هائلاً، وزخماً عظيماً، ولكنه من ناحية أخرى مرتاح للنتائج التي حققها في رحلته إلى القيروان على ما يبدو، لأنها أضافت شيئاً جديداً لما كان متداولاً عنها من معلومات حتى ذلك الوقت.

ومهما يكن من أمر فإن ما دونه رحالتنا من ملاحظات أودعها كتابه السالف الذكر لا يمكن التقليل من شأنها، إذ احتفظت لنا بالكثير من التفاصيل الحياتية الهامة في تينك المدينتين، والمناطق التي وأتيح له التجوال فيها، إن دقة الوصف، وعلمية الملاحظة وجمال السرد كان لها جميعاً أهميتها الخاصة التي تحتلها بين ذلك الزخم الوفير من المعلومات التي دونها العشرات من المستكشفين والرحالة من قبله.

الرحالة الطبيب أرنست هـ. جريفين
(1912)

قدم الرحالة الطبيب (أرنست هـ جريفين) إلى طرابلس في عام 1912 وذلك كمبعوث لجمعية الصليب الأحمر البريطانية ليساعد في علاج الجرحى ومداواة المصابين في ميادين القتال الدائر في أنحاء كثيرة من طرابلس إبان الحرب الإيطالية الليبية، ومن أجل هذه المهمة الإنسانية عبر رحالتنا (جريفين) بحر المانش إلى فرنسا مصطحباً معه كميات كبيرة من الأدوية والتجهيزات الطبية التي زودته بها الجمعية - إلى جبهات القتال في منطقة طرابلس، ومن ميناء مرسيليا بفرنسا تحول إلى تونس حيث استقل أحد المراكب الصغيرة، وفي نيته الوصول إلى الحدود الليبية

التونسية غير أنه بسبب من اضطراب البحر، وسوء الأحوال الجوية يتعرض إلى مصاعب ويكاد مركبه يغرق في اليمّ بعد أن تسربت إليه المياه من جميع النواحي، الأمر الذي إضطر معه (جريفين) إلى أن يعود أدراجه إلى تونس، وظل هناك مدة أخرى في انتظار أن تزوده جمعية الصليب البريطانية بكميات إضافية من الأدوية والتجهيزات الطبية التي كانت قد أتلفتها مياه البحر في بداية رحلته غير الموفقة إلى طرابلس وبعد أن تزوده الجمعية بالكميات المطلوبة من التجهيزات الطبية يغادر تونس ميمماً وجهه شطر الحدود الليبية مستخدماً كل أنواع المواصلات المعروفة في ذلك الوقت ومن هناك استطاع أن يتسلل إلى معسكرات المجاهدين الليبيين، ويتنقل معهم حيث يتنقلون، وقد أتاحت له مهنته كطبيب أن يلتقي أثناء عمله في منطقة الجبل الغربي بمختلف فئات الشعب وأن يقيم علاقات جيدة مع المتساكنين الذين سرعان ما ألفوه، وأحبوه، وقدموا له الأمن والحماية لمزاولة عمله كطبيب، وبالنظر إلى أنه كان غير ملم باللغة العربية فقد كانت الحاجة تدعوه إلى الاستعانة بمترجمين ليكونوا حلقة وصل بينه وبين مرضاه

وبالنظر إلى شحة الأدوية، وقلة وسائل العلاج بسبب ظروف الحرب، لذلك فما إن يضع عصا الترحال في بلدة أو قرية حتى يتقاطر عليه أرتال من المواطنين طالبين المساعدة، والمعالجة، ومن أجل ترغيب الناس في الإقبال على عيادته المتنقلة إتبع أسلوباً في علاج مرضاه قريباً من أمزجتهم ولا يختلف كثيراً عن الوسائل التي يعرفونها ويستخدمونها في المداواة والتطبيب!

والذي يهمنا هنا من أمر هذا الرحالة ليس ما قدمه من أياد بيضاء، ومباذل سخية، وتضحيات كبيرة أثناء أدائه لمهمته كطبيب عمل تحت ظروف صعبة، ومحفوفة بشتى المخاطر، - إن ما يهمنا من أمر هذا الطبيب الرحالة هو ما يتعلق بما سجله ببراعة من ملاحظات، وانطباعات، وخطرات وصفية خلال تجواله في منطقة الجبل الغربي، وما حولها من أراض، وكان لكل ما سجله في مدوناته يكتسي أهمية خاصة في ذلك الظرف الدقيق الذي كانت تمر به بلادنا مما أعطى لكل حرف كتبه المعاني الوثائقية ذات الأهمية القصوى بالنسبة لهذه المرحلة من مراحل تاريخنا النضالي.

وقد جمع أرنست هـ. جريفين ملاحظاته في كتاب أسماه (مغامرات في طرابلس)[1] نشره بعد عودته إلى بريطانيا، وفيه إشارات كثيرة إلى أسماء وشخصيات ومعارك حربية، وأماكن، وبلدان وانطباعات وصفية، لكل ما يقع في حيز اهتمامه، فكانت لإشاراته العديدة ذات الزخم المعرفي قيمتها العلمية وطابعها الثقافي، وتوجهها الاجتماعي، وأسلوبه يتميز بالإشراق والطلاوة، والنفحة القصصية، فهو لا يفاجئنا بالأحداث التي يتكلم عنها، وإنما يمهد لها بتحليلات وتلميحات ونظرات تتصف ببعد النظر وبحدة من الذكاء. وأن من يقرأ ما ورد عنه في كتابه ،السالف الذكر، سيلاحظ نقاء طويته وصفاء قلبه ـ فضلاً عن شعور لا يخلو من حمية إنسانية ومن حنو يتفيأ إعجاباً بالشجاعة التي يتحلى بها المجاهدون الليبيون في التصدي لعدوهم الإيطالي الذي يفوقهم عدة وعتاداًوقوة.لنستمع إليه يقول:

(رجعت بأفكاري بسرعة إلى المعسكر الواسع الذي كنت في زيارته منذ وقت قصير، وتذكرت ألوف الرجال

(1) قامت جريدة الفاتح الليبية بنشر جزء كبير من فصول هذا الكتاب، وقد استعنا به في كتابة هذا الفصل.

الذين كانوا في المعسكر وهم ينعمون بوافر الأكل وأفضل الملبس. وقد زودوا بالطائرات والسيارات والمدافع، والبنادق وهنا هنا يقف يقف وسط طريق هذا الجيش الحديث العظيم كالحاجز صبي صبي عربي يتضور جوعاً ويمسك ببندقية قديمة)!!

كانت إقامة رحالتنا (غريفين) تخضع مباشرة إلى طبيعة مهمته كطبيب يقف وراء خطوط القتال وكانت هذه بدورها متغيرة، وهكذا فقد انتهى به المطاف إلى الإقامة في (يفرن) حيث أصبح ضمن معسكر المجاهدين الذي يتزعمه سليمان الباروني،وكان الأخير قد وضع تحت تصرفه المستشفى التركي القديم لكي يستقبل فيه مرضاه وجرحاه على أن طبيبنا الرحالة كان كثيراً ما يترك مستشفاه هذا ليقوم بزيارات ميدانية في أماكن عديدة من منطقة الجبل الغربي مستعيناً في تنقلاته هذه بركوب الجمال، والبغال حيث كان يقطع عشرات الكيلومترات عارضاً خدماته الطبية على المتساكنين.

وكان ـ بالرغم من انغماسه في مهماته كطبيب ـ يجد الوقت الكافي بما يسمح له بالتحدث إلى من يلقاهم من

سكان المنطقة، وما يراه من أحوالهم حيث تدخل هذه كمادة حيوية في تركيب أبحاثه ودراساته، وملاحظاته، ومن هنا فقد جاء كتابه (مغامرات في طرابلس) مليئاً باللمحات الحية، التي أحاطت بكل شيء من حوله، فجاء كتابه هذا بمثابة سجل للأحوال الانتروبولوجية ضم بين دفتيه مجموعة ضخمة من الملاحظات المتعلقة بطبيعة العادات والتقاليد والأساليب لجزء عزيز من ليبيا وذلك بأسلوب سلس مشبع بأدبيات بحاثة مطلع. مما يؤكد إن رحالتنا أرنست هـ. جريفين ـ كان ـ قبل أن يكون طبيباً يداوي الناس ـ رجلاً ضليعاً في علوم كثيرة ومطلعاً على معارف شتى، لذلك فإن كتابه ـ السالف الذكر ـ هو كتاب قليل الأخطاء، وبعيد عن الشطط، ونزيه عن التعصب، وهو بهذا الاعتبار يعد كتاباً مهماً في إغناء دراساتنا وأبحاثنا المتعلقة بتلك الفترة المثيرة من تاريخنا.

صحافيون ومراسلون رحّاله

(1911 ......)

لم تؤثر الحرب الإيطالية الليبية التي دارت قريباً من ثلاثة عقود في أنحاء مختلفة من الأرض الليبية، على سير وتدفق المهمات الإستكشافية التي قام بها رحالون ومستكشفون قدموا إلى ليبيا من مختلف أنحاء أوروبا بل بالعكس فقد شهدت هذه المرحلة العصيبة من تاريخ بلادنا (نشاطاً علمياً هاماً موجهاً من أجل المعرفة المنظمة بليبيا)[1] تركزت في نشاطات ذات طابع فلكي، وتوبوغرافي في المنطقة الشمالية من طرابلس الغرب، وبرقة، وقد أدت هذه

(1) إتيليو موري (الرحالة والكشف الجغرافي) ص 89.

المعلومات إلى تصحيح المعلومات التوبوغرافية وإغنائها بإضافات جديدة)(1).

وليس مجالنا هنا تتبع الإنجازات الاستكشافية التي تمت على الأرض الليبية أثناء الحرب أو في فترة الاحتلال، فهي كثيرة، ومتصلة وتكتسي أهمية خاصة في مجمل الأنشطة الإستكشافية التي دارت على الأرض الليبية لعقود طويلة قبل وبعد ذلك ـ وإنما نريد هنا الوقوف قليلاً عند جانب منها يتصل بالأنشطة التي قام بها صحافيون، ومراسلون إبان حضورهم إلى ليبيا لتغطية أخبار الحملة الإيطالية على ليبيا بدءاً من اكتوبر عام 1911فبمجرد أن أعلنت إيطاليا عن خطتها الإجرامية الرامية لغزو ليبيا حتى هبت الجرائد، والمجلات، ووكالات الأنباء في عواصم مختلفة من أنحاء العالم تدفع بمراسلين عنها لتغطية أخبار هذه الحملة المسلحة.

وكان هؤلاء المراسلون والصحافيون الذين تقاطروا على ليبيا في صحبة هذه الحملة يشكلون خليطاً مختلفاً

(1) نفس المصدر السابق ص 90.

ينحدرون من أجناس وبلاد عديدة، وقد وجدوا في قيام هذه الحملة فرصة ثمينة لنقل تقاريرهم الحربية لقرائها الذين باتوا يتلهفون لمعرفة ما يجري على ساحة القتال في هذا الجزء من العالم.

وكان بعض أولئك الصحافيون والمراسلون قد وجدوا ـ أثناء مصاحبتهم للجيش الإيطالي في مناطق مختلفة من الأراضي الليبية ما يسمح بالتوسع فيما كانوا يتناولونه في تقاريرهم الحربية فحاولوا تضمينها شتى الصور الإنطباعية والمشاهدات الشخصية عن جوانب مختلفة من تلك المناطق التي أتيح لهم أن يتجولوا فيها. والذي يطلع على نماذج من تقاريرهم في تلك الفترة يجد فيها ـ فضلا عما تتناوله من أخبار تلك الحرب، وما يجري خلالها من معارك ذات طابع ضار يرمي إلى إبادة الشعب الليبي ـ يجد فيها فضلاً عن ذلك كله الكثير من الملاحظات الجانبية التي تكتسي اهمية علمية خاصة فيما يتعلق منها بالظروف العامة للأوضاع التي خلفتها تلك الحرب، وتأثيرها على السكان الليبيين الذين تجرعوا ويلاتها، واكتووا بآلامها.

وكان على رأس قائمة تلك الصحف، والمجلات التي

أتيح لمراسليها أن يرافقوا الحملة الإيطالية على ليبيا:

1 ـ الديلي ميل 2ـ التايمس 3ـ الديلي ميرور 4ـ المورنينغ
5 ـ الديلي تلغراف 6ـ فرانكفورت.

ولعل من أهم أولئك المراسلين الذين رافقوا هذه الحملة من بدايتها[1] وعملوا تحت مظلة الاحتلال:

● الصحافي فرانسيس ماكولا.

كان ماكولا هذا قد رافق الحملة ليغطي أخبارها لحساب مجموعة كبيرة من الصحف في بريطانيا وأمريكا وغيرها، وكتاباته التي أتيح لنا الإطلاع على نماذج منها مترجمة إلى اللغة العربية تتميز بشدة إلتزامها بحرفية الحقائق، وبإيمان مطلق بعدالة القضية التي يحارب من أجلها الليبيون، فكانت التقارير التي يرسل بها للصحف في أوروبا وأمريكا تعكس الصورة البشعة للممارسات اللاأخلاقية التي يرتكبها الجيش الإيطالي المحتل في حق

(1) من المرجح أن (ماكولا) قد جاء ضمن مجموعة من الصحافيين قدمت مع الحملة وقد أتيح له أن يكون شاهد عيان لعملية إنزال الجيش الإيطالي على سواحل طرابلس كما وقف على المعارك الأولى في بئر بولياتة والهاني وشارع الشط وقرقارش وسيدي المصري وغيرها.

الليبيين العزل، وكان يعمل بجد متناه على فضح تلك الممارسات بالكلمة النارية الملتهبة، والصورة الحية المستصرخة محاولاً وضع النقاط على ما يجري في ساحة القتال، كاشفاً الغطاء عن المغالطات التي تظهر في بيانات العدو العسكرية سواء في جرائده أو في تصريحات قادته فاضحاً عمليات التمويه التي يتذرع بها الإيطاليون لإخفاء ما يلقونه من بلاء حسن على يد المجاهدين الليبيين، ورفع صوته مجاهراً بالحقائق الناطقة بأرقام الخسائر في صفوفهم، ملتزماً في ذلك إنصاف المجاهدين الليبيين من الدعايات المغرضة، وقد تصدى في عناد وضراوة لتلك الأساليب القمعية التي يتبعها الجيش الإيطالي ضد الأهالي العزل، وأدانها بالوحشية والخروج عن آداب الحروب، وهو لا يكتفي بعرض الصورة التي تجسد في بشاعتها ما يتحمله الشعب الليبي من عذابات الحرب، وويلات الإبادة الهمجية بل يكتب بلهجة من يستثير الهمم ويستصرخ الضمائر من أجل إيقاف النزيف الدموي فوق رمال الصحراء في حرب لا يرى معنى لها ولا فائدة منها فيكتب قائلاً:

(إنني أرغب في أن يراعي الأقوام الفاتحون في معاملتهم للمغلوبين قوانين الأمم لامتصاص غضبهم ، فإذا جاءت إيطاليا إلى طرابلس فاتحة باسم المدنية فعليها قبل كل شيء أن تكون رسول العدالة، فإذا لم تكن صرفت جهودها في نصب أعواد المشانق لا في تطبيق العدالة بين الناس، فإنني لا أتردد بأن أعلن بأن إيطاليا تجرم في حق المبدأ التي إدعت أنها تحارب من أجله)!

وهكذا فلم يكتف فرانسيس ماكولا بما كان يعرض له من شجب وتنديد بحرب الإبادة التي تقوم بها إيطاليا في ليبيا فيما كان يكتبه وينشره من تقارير بل نجده عندما ـ فاض به الكيل ـ يوجه خطاباً شديد اللهجة لقائد الحملة (الجنرال كانيفا) يعنفه فيه على ما يرتكبه جيشه من أعمال بربرية، ويطلب منه إعادته فوراً إلى بلاده!؟

● **الصحافي الإنجليزي جـ. ف. أبوت**

كانت الحرب التركية الإيطالية قد بدأت وكأنها وشيكة الوقوع عندما قرر جـ. ف. أبوت الحضور إلى ليبيا لمراقبة الأحداث الجارية في الجبهات العربية التركية التي ترابط

هنا، وهناك في مختلف الأماكن من الأراضي الليبية ومن ثم كتابة ما يغطي أخبارها في تقارير صحفية كان يزعم نشرها بعد ذلك.

ومن أجل هذا غادر (أبوت) لندن قاصداً طرابلس عن طريق تونس سالكاً الطريق الصحراوي، بعد أن وجد الطريق الساحلية مقفلة في وجهه، وقد عرف هذا الصحافي طريقه إلى الجبهات العربية التركية، وكان وصوله إليها في شتاء عام 1911 ومن ثم بدأ يتابع أحداث هذه الحرب وهي في بدايتها، ويدون تقاريره عما دار من معارك بين المجاهدين ، والجيش الإيطالي الغازي، وقد استطاع أن يجمع من ميادين القتال زخماً كبيراً من المعلومات التي تغطي في جانب منها أخبار الحرب، وقد تميزت بالرصد الأمين، والإفاضة الذكية وبقدر كبير من الحياد والتجرد.

وقد تمكن جـ. ف. أبوت بعيد عودته إلى بلاده من جمع شتات تقاريره، في كتاب أسماه (الجهاد المقدس في طرابلس)، وقد اطلعنا على ما نشر منها مترجماً إلى اللغة العربية على صفحات جريدة (الشعب) الليبية.

● الصحافي كنود هلمبو.

ومن الصحافيين النابهين الذين جاؤوا إلى ليبيا بنية الاطلاع على ما يجري فيها من أمور في وقت دقيق من تاريخها، هو كنود هلمبو المواطن الدنماركي المولود عام 1902 في جزيرة (جوتليد) وكان قد لقب نفسه بأحمد علي بعد أن أشهر إسلامه وكان المسلم الوحيد وقتئذ في الدنمارك، وبالرغم من حالة التخلف الذي يعيشها العرب في أوائل هذا القرن إلا أنه كثيراً ما جاهر بعلو قدرهم وسمو مكانتهم قائلاً: إن العرب هم أصل الحضارة وأصحاب فضل كبير في كل ما حققته أوروبا من تقدم وقد دفعه حبه للعرب أن يجند قلمه لخدمة قضاياهم التحريرية، فيذهب إلى منطقة الريف بشمال المغرب عام 1924 ليعيش جنباً إلى جنب مع العرب المقاومين للاستعمار الأسباني ومن هناك أخذ يكتب عن قضيتهم العادلة، وينشر مدوناته في كتاب أسماه (بين الشيطان والبحر العميق) يفضح فيه الجرائم التي يرتكبها الأسبان في حق الشعب المغربي بالريف وكان كتابه هذا وثيقة إدانة لما يجري هناك خص به الرأي العام في الدنمارك أولاً، وإسكندينافيا عامة.

وفي عام 1930 يعود كنود هلمبو إلى شمال أفريقيا مرة أخرى ليقوم بأغرب رحلة يقطع فيها الساحل الأفريقي بادئاً إياها من (تطوان) بالمغرب، ومنهيها في (بور سعيد) في مصر، وذلك بواسطة سيارة شيفروليه وبالطبع فقد مرّ بطرابلس، وبنغازي، وبالرغم من العراقيل التي وضعتها أمامه سلطات الاحتلال الإيطالية، فقد تمكن من التجوال في أماكن عديدة من جزئها الشرقي وعقد مجموعة من الاتصالات بالمجاهدين وبالفئات المثقفة من المواطنين الليبيين، وتزود عن طريقهم بشتى الحقائق والمعلومات عن بلادهم الرازحة تحت الاستعمار الإيطالي الغاشم.

وقد إشتبهت سلطات الاحتلال الإيطالي في أمره فقبضت عليه وأودعته السجن في (درنة) بعد أن وجهت إليه تهمة التعاون مع الثوار الذين ما زالوا يعملون هناك بزعامة الشيخ عمر المختار. ولكن يطلق سراحه ويستأنف رحلته إلى بور سعيد ـ ومنها يعود إلى موطنه في الدنمارك حيث عكف على تأليف كتابه (الصحراء التي تلتهب) الذي تصدى فيه لحركات المقاومة ضد الاستعمار الفرنسي الإيطالي في إفريقيا الشمالية، وهو جهد آخر يضيفه هلمبو

إلى جهده السابق الذي قام به في الريف، لتعرية الاستعمار وفضح ممارساته وأعماله الإجرامية في المنطقة وكان أهم ما يتميز به كتابه السالف الذكر عن الجزء الشرقي من ليبيا ـ فوق ما ذكرنا ـ تلك الرسوم التي التقطها المؤلف بنفسه ، والناطقة بكل شيء رآه عيناه عبر تجواله في هذا الجزء العزيز من ليبيا.

وفي خلال عام 1933 عاد أحمد علي هلمبو إلى الشرق، ميمماً وجهه شطر الأراضي المقدسة وفي نيته أداء فريضة الحج، ومن هناك استطاع ـ على ما يبدو ـ أن يتنقل في جنوب ما كان يسمى بشرق الأردن حيث لقي حتفه في العقبة على يد أحد المأجورين العرب لحساب (جلوب باشا) ممثل الاستعمار الإنجليزي العتيد في المنطقة.

وما من شك في أن هذه المرحلة من تاريخ ليبيا ـ سواء تلك التي واكبت الحملة الإيطالية أو تلك التي أعقبتها ـ قد شهدت العديد من البعوث الصحفية على اختلاف أنواعها، وكان لهذه البعوث أثرها الواضح في زيادة الإهتمام الدولي بقضية ليبيا، التي غدا اسمها معروفاً جيداً عن طريق تلك الكتابات التي وضعت نصب عينيها تغطية

أخبار الحملة الإيطالية، وما جاء في ذيولها من أحداث قفزت بليبيا ـ التي لم تكن تذكر في المحافل الدولية إلا لماماً ـ إلى مكان الصدارة من ذاكرة الدنيا كلها، وأخذت مكانها بارزاً في الأذهان بكل ما تمور به أرضها من مقاومة عنيدة، ورفض وثورة على الاحتلال.

ونحن نعلم إن المراسلين الذين جاءوا إلى ليبيا تحت مظلة الحملة الإيطالية بدءاً من اكتوبر عام 1911، كانوا من ذوي الميول المختلفة والمواقف المتباينة من قضية الصراع المسلح الدائر على الأرض الليبية، وهم يعكسون في هذا مواقف صحفهم وأقطارهم التي كانت تتراوح ما بين الإنحياز إلى إيطاليا، والمعارضة، والحياد. ومهما يكن من أمر، فقد كانت معظم تقاريرهم الاستطلاعية عن سيرورة هذه الحرب قد اعتمدت في مادتها على واقع ما كان يجري فعلاً من أحداث في هذه الحرب ، ومن هنا فإن فرص التلاعب بالحقائق كانت قليلة خاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار أن هناك العديد من المراسلين الذين يضطرهم التنافس في نقل أخبار الحملة أن لا يبتعدوا كثيراً عن الإلتزام بما كان يجري أحداثها كبيرة كانت أم صغيرة.

وفي مجال المقارنة يشير أتيليو موري في كتابه (الرحالة والكشف الجغرافي في ليبيا) ص 12 - 13 مفاضلاً بين تلك الطبعات التي توالت على تقارير هورنمان الطبعة الألمانية باعتبارها الطبعـة الأمينة المحافظة على أصل التقارير التي كتبها هذا الرحالة المستكشف عن الوقائع التي دونها عن رحلته.

ومن حسن الحظ أن هذه التقارير التي كتبها هورنمان عن جولاته في الصحراء الليبية، قد وجدت طريقها أخيراً إلى المكتبة العربية الليبية حيث ترجمت إلى اللغة العربية تحت عنوان (من القاهرة إلى مرزق) وقامت بنشره مكتبة الفرجاني بطرابلس ليبيا.

ومن الجدير بالذكر هنا أن فردريك هورنمان قد لقي مصرعه في هذه الرحلة [1] وذلك في ظروف غامضة، وبذلك انتهت حياة هذا الجوالة المغامر بعد أن ترك وراءه أثراً علمياً لا يقدر بثمن.

(1) يستفاد من بعض المعلومات المتعلقة بالنهاية المأساوية لهذا الرحالة أنه بعد أن أشرف بنفسه على إرسال تقاريره من طرابلس، عاد في 10 من ديسمبر 1799 إلى (مرزق) حيث صرح بنيته لاستئناف رحلاته عبر أراضي السودان الغربي فكانت هذه هي الرحلة التي وضعت حداً لحياته حيث توفي وعمره لا يتجاوز ثمانية وعشرين عاماً فقط!

ملحق الصور

1 ـ صورة شخصية للمستكشف اكسندر غ. لانج

2 ـ صورة شخصية للمستكشف جيمس ريتشاردسون.

3 ـ صورة شخصية للمستكشف باولو دلا شيلا.

4 ـ صورة شخصية للمستكشف هانريش بارت.

5 ـ صورة تمثل قلعة بونجيم من رسم المستكشف ليون.

6 ـ صورة لمدينة (تمبكتو).

7 ـ نموذج من حروف لطوارق الصحراء الوسطى.

8 ـ صورة لأحد الرحالة الألمان يتنكر في الزى العربي.

9 ـ خريطة لمدينة (ماسينيا) مركز الحكومة في باجرمي.

10 ـ خريطة رسمها هاينريش بارت لنهر النيجر.

11 ـ صورة شخصية للطبيب الرحالة ارنست هـ. جريفين.



الكسندر غ. لاينج

وفي مجال المقارنة يشير أنطوني موري في كتابه (الرحالة والكشف الجغرافي في ليبيا) ص 12 - 13 مقارناً بين تلك الطبعات التي توالت على تقارير هورنمان الطبعة الألمانية باعتبارها الطبعة الأصح المحافظة على أصل التقارير التي كتبها هذا الرحالة المستكشف عن الوقائع التي دونها عن رحلته.

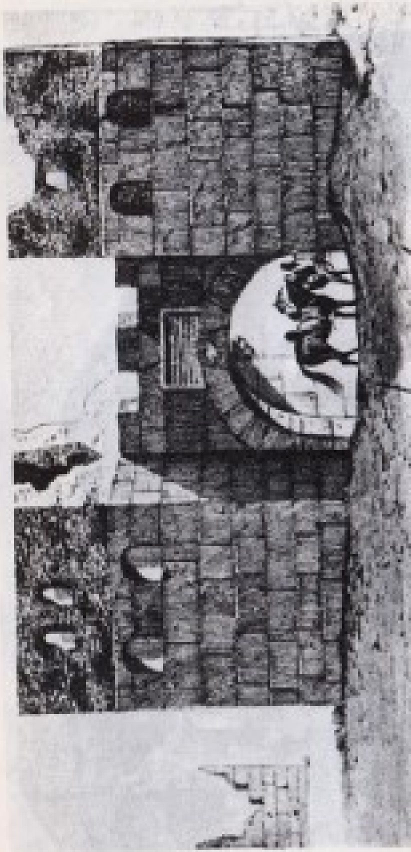
ومن حسن الحظ أن هذه التقارير التي كتبها هورنمان عن جولاته في الصحراء الليبية، قد وجدت طريقها أخيراً إلى [illegible]



جيمس رتشاردسون



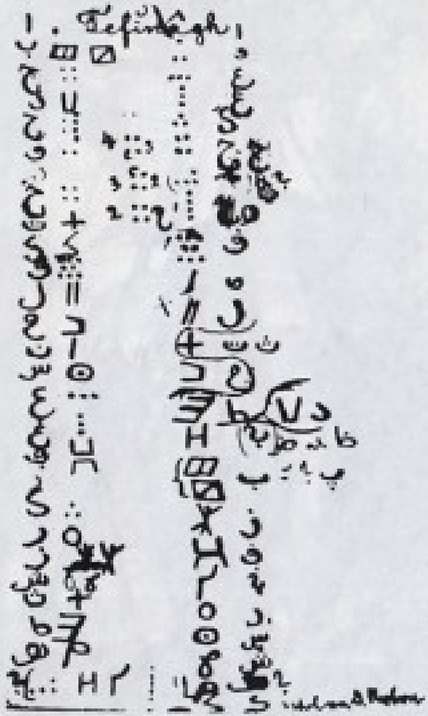
الدكتور دلاشيلا



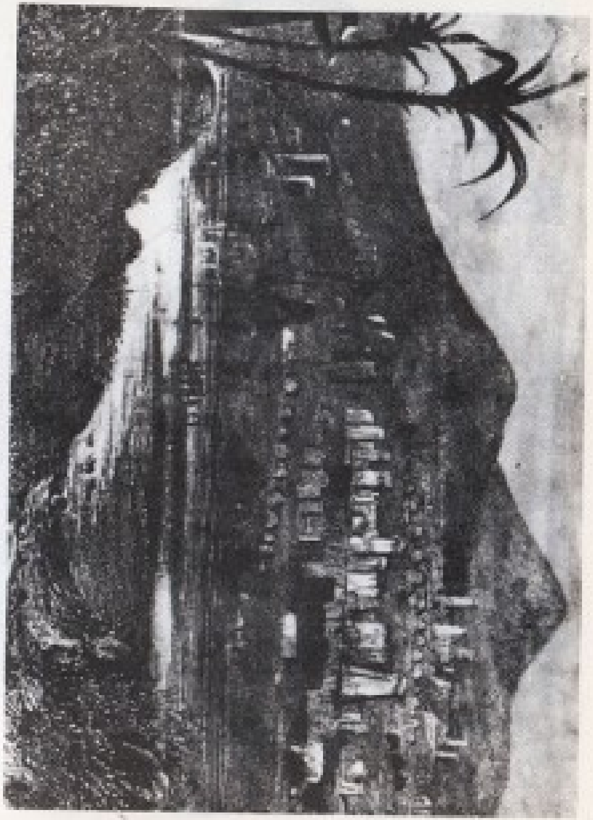
الباب الشمالي من قلعة (بونجيم) من رسم الكابتن جـ. ف. ليون عام 1819م. من كتابه (رحلات في شمال أفريقيه) الصادر في لندن عام 1821م.



الرحالة الألماني هانريش بارت



حروف Tefinagh للطوارق فى الصحراء الوسطى كما رسمها هاتريش بارث فى يومياته وقايسها بالحروف العربيه، وهذه اليوميات محفوظة الآن فى باريس.



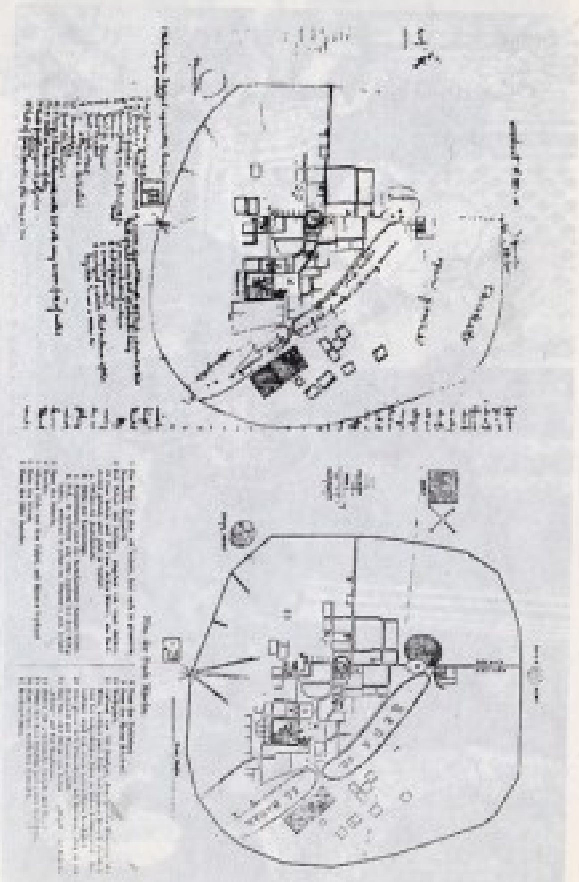
صورة للمدينة الصخرية التى غامر (بارث) لاكتشافها



أحد الرحالة الألمان يتنكر فى الزى العربى (1831 — 1896م) .



غوستاف ناختيغال وهو يقدم هدايا ملك بروسيا فيلهلم الأول إلى شيخ عمر سلطان بورنو فى سنة 1870



خريطة لمدينة (ماسينيا) مركز الحكومة في مملكة (باقرمي) عام 1852 كما رسمها بارت في يومياته



الخريطة التي رسمها هاينريش بارت لنهر النيجر بين جوا ـ واتزونجو



الطبيب الرحالة أرنست هـ. جريفين

هذا الكتاب، دراسة لفترة زمنية معينة من تاريخ ليبيا تقع بين القرن السابع عشر والقرن العشرين. وسيجد القارىء فيه جوانب جديدة عليه، وسيعرف الكثير مما كان يجري بين القناصل والرحالة، وسيعي فترة عصيبة من عمر هذا البلد، وأعتقد أن المؤلف ساهم مساهمة طيبة في الحركة الثقافية وأدى خدمة للمكتبة لا تذكر.

الثمن

300 درهم داخل الجماهيرية